التلون في الخطاب الشعري في العصر العباسي الأول

أ.م.د . كمال عبد الفتاح حسن السامرائي
جامعة سامراء/كلية التربية / قسم اللغة العربية

توطئة :

يعد العصر العباسي الأول من أهم العصور الأدبية التي وضح فيها الخطاب الشعري ، وكان علامة بارزة في المدونة الشعرية ، ومازال الباحث في هذا العصر يجد فسحة من البحث عن جوانب قد غفل عنها الباحثون ،أو لم يستوفوها حقها من الدراسة .

وشاعت في الآونة الأخيرة الدراسات التي تحاول أن تعكس بعض المفاهيم الحديثة على مضمون الشعر واتجاهاته في ذلك العصر ، ولاسيما السياسية : كالإقصاء ، والتحريض ، والدعاية السياسية ، والترويج الإعلامي... ، وقد طرحت موضوعات تُعد من باب الأدب أو النقد الثقافي: كالآخر ، وصراع الحضارات ، والتعايش السلمي وغيرها من المفاهيم الجديدة التي أراد الباحثون منها أن يعكسوا ذلك على الشعر ومضامينه ، وبخاصة الشعر العباسي .

إن موضوع التلون في الخطاب الشعري ومفهومه لم يكن من ضمن الموضوعات التي استحدثت في الوقت الحاضر ، بل كان متداولا في العصور السابقة ، من حيث الإجراء الشعري ، أما من حيث التأسيس للمصطلح نحسب أننا أول من اشتغل عليه في هذه الدلالة، ودلالة اللفظة عند علماء اللغة تقترب – بل تتوافق – مع دلالتها عند النقاد ، إذ ذكر الأصفهاني في ألاغاني عند حديثه عن بشار : ((كان كثير التلون في ولائه ، شديد الشغب والتعصب للعجم))(١) ، فقد عدّ أبو الفرج التلون عند بشار في موضوع واحد وهو الولاء لما له علاقة بأصل الشاعر ، ولم يذكر تلونه في جوانب أخرى ، مما دفعني إلى الخوض في إجراءات المفهوم والبحث والتقصي عنه في المنجز الشعري للعصر العباسي الأول ، ووجدت هذه الظاهرة عند كثير من الشعراء متخذة عدة جوانب في أشعارهم ، فمنهم من كان من أصول غير عربية، ومنهم من تذبذب في مواقفه السياسية ، والدينية، والثقافية وارتبط التلون بالشعوبية ، والزندقة ، والصراع السياسي والمذهبي ، وتغيير المواقف ، وأضحى التلون سمة من سمات بعض الشعراء ممن لا يعرف له رأي ، أو موقف ، أو مذهب ، أو اتجاه سياسي ، فضلا على موضوعة التكسب بالشعر؛ الذي كان ديدن بعض الشعراء ، فنجدهم كثيرا ما ينقلبون على ممدوحيهم حينما يحرمون من العطاء .

ولم تكن ظاهرة التلون مقتصرة على الشعراء الموالي – وان وضحت عندهم أكثر– بل انسحبت على بعض الشعراء العرب . إذ إن للخطاب الشعري الذي عبر عن تلك الظاهرة دلالته الواضحة في الدواوين وكتب الاختيارات والتراجم ، وعمد الكُتّاب والمؤرخون إلى ذكر سير أولئك الشعراء وعلاقتهم بالممدوحين ورجال

مجلة سر من رأى
ISSN : 1813-6798
للدراسات الانسانية محكمة متخصصة
تصدر عن كلية التربية / جامعة سامراء

عصرهم ، فضلا على انتمائهم السياسي وموقفهم من السلطة وتوجههم المذهبي ومناسبة القصائد التي دخلت من ضمن المنازعات، والمتغيرات السياسية ، والاجتماعية ، والمذهبية .

وقد شكل الشعراء جزءاً من هذه الأدوات التي استعملت في تلك المنازعات ومن ثم أصبحت جزءا من التلون ، ودأب النقاد والكتاب المحدثون حينما تناولوا ذلك العصر في ذكر سير الشعراء وبخاصة موضوع الشعوبية ، والزندقة ، والصراع السياسي ، وعلاقتهم بالآخرين ، لكنهم لم يتطرقوا إلى موضوعة التلون ، بل عدوا ذلك نفاقا ، وانقلابا على مواقف سابقة ولم يلتفتوا إلى التلون ، حتى القدماء منهم لم أجد لهم إشارة غير تلك التي ذكرها الأصفهاني(٢).

وقد يكون النفاق وعدم الوفاء وتغير المواقف والانقلاب على الممدوحين جزءا من التلون ، ولكنه لم يعبر بصراحة عن سلوكية الشاعر العامة وتلونه وتقلبه وعدم استقراره على رأي ، لذلك جاء البحث ليواكب ويتقصى تلك المواقف من خلال القراءة الحفرية في المنجز الشعري العربي في العصر العباسي الأول .

وقد قسمت البحث على ثلاثة مباحث جاءت على وفق المادة المتوافرة وهي التلون الاجتماعي ، والتلون السياسي ، والتلون المذهبي والديني وسبقتها بتمهيد للتعريف بمصطلح التلون والبحث في دلالته اللغوية والاصطلاحية فضلا على التعريف بمصطلح الخطاب الشعري . وقد تداخلت بعض المفاهيم في المباحث من خلال طرق أكثر من موضوع في المبحث الواحد لتقارب الإطار العام وماله علاقة به.

التمهيد:

قبل الدخول في فضاء التعريفات؛ لابد من تتبع المصطلح في الكتب اللغوية ، ثم البحث عن دلالته الاصطلاحية . إذ إن البحث عن مصطلح ما في المعاجم ،لم يدرج من ضمن ما تعارف عليه النقاد والباحثون ،و بذلك تكون الدلالة اللغوية هي المؤسس للمصطلح؛ حينما يغيب التعريف في الاصطلاح .

التلون لغة : قال ابن فارس ((تلون فلان : اختلفت أخلاقه)) (٣) ، وفصل ابن منظور ذلك بقوله: ((فلان متلون : إذا كان لا يثبت على خلق واحد)) (٤) ؛ لذا نستطيع أن نضع تعريفا للتلون وهو : التذبذب واختلاف المواقف وتبدل الآراء وعدم الاستقرار على اتجاه أو سلوك سواء أكان سياسيا، أم دينيا، أم اجتماعيا ،ويعاب الرجل بالتلون ، لأنه يعد من النفاق وعدم الوضوح .

أما الخطاب؛فقد تقاربت دلالته عند اللغويين ، فقالوا : الخطاب بمعنى الكلام(٥) ، وقيل هو مراجعة الكلام(٦) .

وجاءت لفظة الخطاب في القرآن الكريم بصيغة المصدر في ثلاث آيات في قوله تعالى ﴿ وشددنا ملكه واتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [ص/٢٠] ، وقوله تعالى ﴿ فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ [ص/٢٣] ،

وقوله تعالى ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون فيه خطابا ﴾ [النبأ/٣٧] ، واتفقت كتب التفسير على أن الخطاب يقع من ضمن الكلام والحديث(٧) .

إذن فالخطاب((كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا))(٨)، وبذلك نستطيع أن نؤسس لمصطلح جديد لما شرعنا به في بحثنا عن التلون في الخطاب الشعري وهو : كل كلام خضع للصياغة الشكلية ودخل من ضمن الشعر نظما وإنشادا سواء أكان مكتوبا أم ملفوظا وعبر عن الاختلاف في الرؤى والمواقف وعدم الثبات على مبدأ واحد من الشاعر ، أي أنه يعبر عن سلوك الشاعر من خلال شعره الذي هو انعكاس لمبدأ الشاعر وديدنه في تعدد مواقفه ويكون فهمه من ضمن السياق الثقافي والسياسي والاجتماعي .

المبحث الأول : التلون الاجتماعي :

تداخلت الأجناس وتمازجت بعد الفتوحات الإسلامية لبقاع جديدة خارج الجزيرة العربية ، ودخلت الأقوام الجديدة في الإسلام سواء أكان إيمانا أم خوفا ، فضلا عن موضوع السبي وزواج المسلمين من بعض النساء من تلك الأقوام غير العربية وهي حركة أطلق عليها هدّارة ((بحركة التعريب الجنسي)) (٩) . ويذهب شوقي ضيف إلى بيان أسباب نشوء نظام الولاء في الإسلام بقوله ((وأصبح الإسلام والعروبة شيئا واحدا ... وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فتحت البلاد الأجنبية ، فانه كان حتما على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ، ويصبح كأنه فرد من أفرادها))(١٠) . وانسحب الأمر على الشعراء الموالي الذين هم من أصول غير عربية ، فبعد أن تشربوا الثقافة العربية واستوعبوا لغتها نجدهم يفتخرون بولائهم لهذه القبائل التي انتسبوا إليها ، كما أن سياسة بني أمية تجاه الموالي ارتكزت على الاعتزاز بالعنصر العربي مما دفع أولئك الشعراء على عدم الخروج عن جادة العروبة والتغني بها ، على الرغم من الاضطهاد الذي عانوه من جراء تلك السياسة ، ولكن حين اختلفت الأمور وتغيرت المواقف السياسية في العصر العباسي وأصبح للموالي حظوة في العهد الجديد ، نجدهم يرجعون إلى أصولهم يتفاخرون بها ، لذلك اختلف بعض المؤرخين والباحثين في هذا العصر عن حقيقة الدولة العباسية والأموية ، فمنهم من رجح عروبة الدولة الأموية وقال بأعجمية الدولة العباسية(١١) ، ومنهم من قلل من ذلك وجعل الدولة العباسية مشتركة بين العرب وغيرهم من الأقوام ولاسيما الفرس وجعل الرياسة للعرب والوزارة للفرس ، وبقي العنصر العربي في العصر العباسي الأول هو المسيطر على زمام الأمور ودفة الحكم(١٢) .

ولا يمكن أن نغفل الصيحات التي انطلقت قبيل العصر العباسي من بعض الشعراء الموالي ممن اعتز بفارسيته؛ ومنهم إسماعيل بن سيار النسائي (ت نحو ١٣٠هـ)(١٣) ، إذ يعد أول خطاب للفرس في موضوع تفاخرهم على العرب والحط منهم ، وتعد احد مظاهر الشعوبية التي تجلت في العصر العباسي على يد أهم الشعراء فيه كبشار وأبي نواس وغيرهم .

وهناك وجوه أخرى من التلون الاجتماعي نجده عند الشعراء الذين افتخروا بولائهم للعرب ومدحوا القبائل التي انتسبوا إليها ولاء؛ ولكن سرعان ما تغير هذا الولاء واخذ الشاعر برمي سهامه المسمومة تجاه العرب وتلك القبائل التي افتخر بها ، وهذا الموضوع كان من ضمن موضوعات الشعوبية التي تناولها بعض الدارسين وبينوا اتجاهاتها وأبعادها ومضامينها(١٤). وكانت تعبر عن التوجه الذي سلكه بعض الشعراء ، فمنهم من تفاخر على العرب بعد أن فخر بهم ، ومنهم من تفاخر بنفسه وحط من شأن العرب ،والذي يهمنا هنا أولئك الذين فخروا بالعرب وبولائهم ومن ثم تناولوا العرب بالهجاء والشتم والحط منهم . ومن ابرز أولئك الشعراء بشار بن برد، فإنه فخر بالعرب– بل عد نفسه من بني عقيل ، إذ يقول :

إِنَّني مِن بَني عُقَيلِ بنِ كَعبٍ مَوضِعَ السَيفِ مِن طُلى الأَعناقِ(١٥)

هذا خطاب واضح في الانتساب والانتماء إلى احدى القبائل العربية مما يظهر تمسكه بالعرب واتباع مذهبهم ، وهنا لا يعد نفسه مولى بل هو عربي صليبة ، وفي قصيدة اخرى يفخر بولائه لقيس ومضر ،تعد من عيون الشعر العربي ، مما حدا بابن المعتز إلى وصفها بالرائية العجيبة(١٦) ، وقد حشدها بألفاظ جزلة وعبارات رصينة وصور جميلة ، في قوله :

أَمِنتُ مَضَرَّةَ الفَحشاءِ إِنّي أَرى قَبَساً تُشَبُّ وَلا تُضارُ

لَقَد عَلِمَ القَبائِلُ غَيرَ فَخرٍ عَلى أَحَدٍ وَإِن كانَ اِفتِخارُ

بِأَنّا العاصِمونَ إِذا اِشتَجَرنا وَأَنّا الحازِمونَ إِذا اِستَشاروا(١٧)

وهناك قصائد أخرى تبين مدى اعتزاز بشار بولائه للعرب إذ سبكها بأبهى الألفاظ التي تنم عن إبداع فني ومنها قصيدته البائية المشهورة التي جاء فيها:

لِأَلقى بَني عَيلانَ إِنَّ فِعالَهُم تَزيدُ عَلى كُلِّ الفَعالِ مَراتِبُه

وفيها البيت المشهور الذي شبه شيئين بشيئين :

كَأَنَّ مُثارَ النَقعِ فَوقَ رُؤُسِهِم وَأَسيافَنا لَيلٌ تَهاوى كَواكِبُه(١٨)

فأسرف بفخره بقيس عيلان وبالقبائل الأخرى التي وردت في قصائده ولاسيما في الطور الأموي من حياته ، وان كان في خطابه هذا أراد التقرب من بني أمية ، إذ أن هذه القبائل كانت من ضمن القبائل التي ناصرت الدولة الأموية ، ولكن هذا الأمر لم يطل عند بشار ، فسرعان ما ينقلب على تلك الأقوال ويغير من ولائه ، ويدعو إلى المساواة ، وهي أولى الخطوات التي سار عليها الشعراء ممن اتصف بالشعوبية(١٩) ، حينما جعل الولاء لله عز وجل – وهذا الخطاب مُسَلّم به من الجميع – ولكن بشارا لم يرد ذلك ، بل جعله خطوة أولى لجس

نبض الآخرين ، إذ طرق بابا لا يستطيع أحد أن ينكره ، فجعل الولاء لذي الجلال وعاب على من جعل ولاءه للعرب وطلب الرجوع إلى الله سبحانه ، إذ قال :

أَصبَحتَ مَولى ذي الجَلالِ وَبَعضُهُم   مَولى العُرَيبِ فَجُد بِفَضلِكَ وَافخَرِ

مَولاكَ أَكرَمُ مِن تَميمٍ كُلِّـها   أَهلِ الفَعالِ وَمِن قُرَيشِ المَعشَرِ

فَارجَع إِلى مَولاكَ غَيرَ مُدافَـعٍ   سُبحانَ مَولاكَ الأَجَلِّ الأَكبَرِ (٢٠)

والمرحلة الأخرى من تلونه هي فخره بأصله الفارسي من دون أن يحط من شأن العرب ، وهنا وضح التلون بشكل جلي ، لأنه سبق ان افتخر بولائه للعرب ، ولكنه ابتعد وبانت حقيقته التي حاول أن يخفيها حينما ادعى الولاء لله سبحانه، فافتخر بالفرس ولم يستكن عند ذلك بل جعل أخواله من الروم ، وكأنه يريد أن يقطع أية صلة ممكن أن تربطه بالعرب ، فقال :

جَدّي الَّذي أَسمو بِهِ   كِسرى وَساسانُ أَبي

وَقَيصَرٌ خالي إِذا   عَدَدتُ يَوماً نَسَبي (٢١)

وينقلب به الحال ويكشف عن وجهه الحقيقي وحقده والنيل من العرب في قصيدة أثقلها بألفاظ جارحة وحط من العرب وبين ازدراءه لهم وتحامله عليهم ، فينم هذا الخطاب ليس عن تلون في خطابه الشعري فحسب وإنما هو حقدٌ أعمى على العرب، بقوله :

سَأُخبِرُ فاخِرَ الأَعرابِ عَنّي   وَعَنهُ حينَ بارَزَ لِلفَخارِ

أَنا اِبنُ الأَكرَمينَ أَباً وَأُمّاً   تَنازَعَني المَرازِبُ مِن طُخارِ

....

فَكَيفَ يَنالُني ما لَم يَنَلهُم   أَعِد نَظَراً فَإِنَّ الحَقَّ عارِ

إِذا اِنقَلَبَ الزَمانُ عَلا بَعَبدٍ   وَسَفَّلَ بِالبَطاريقِ الكِبارِ

مَلَكناكُم فَغَطَّينا عَلَيكُم   وَلَم نَنصِبكُمُ غَرَضاً لِزارِ

أَحينَ لَبِستَ بَعدَ العُريِ خَزّاً   وَنادَمتَ الكِرامَ عَلى العُقارِ

تُفاخِرُ يا اِبنَ راعِيَةٍ وَراعٍ   بَني الأَحرارِ حَسبُكَ مِن خَسارِ

....

وَفَخرُكَ بَينَ يَربوعٍ وَضَبٍّ   عَلى مِثلي مِنَ الحَدَثِ الكِبارِ
مَقامُكَ بَينَنا دَنَسٌ عَلَينا   فَلَيتَكَ غائِبٌ في حَرِّ نارِ(٢٢)

في هذه القصيدة يعدد مظاهر النيل من العرب، ويقارن بين بعض المظاهر البيئية عند العرب والفرس ، وهو بهذا يريد أن ينال منهم ، فعداؤه واضح ولا يمكن لأي قارئ أو باحث أن يسامح بشاراً على قوله ، وإن حاول بعضهم إن يعطيه العذر ويسوغ له فعلته بسبب ما دار بينه وبين ذاك الأعرابي الذي أثار حفيظته وهيج سمومه(٢٣)،لأنه قد كرر الخطاب نفسه في قصيدة أخرى يخاطب فيها العرب جميعا ، الأحياء منهم والأموات ، معددا بازدراء مفردات الحياة اليومية للعرب وما كانوا عليه من عيش بسخرية فجة ،وتناول صريح من دون وازع أخلاقي – وهذا هو ديدن الحاقدين من الموالي – فلم يأل جهدا في ذكر المعايب وإلصاقها بالعرب ، إذ قال :

هَل مِن رَسولٍ مُخبِرٍ   عَنّي جَميعَ العَرَبِ
مَن كانَ حَيّاً مِنهُمُ   وَمَن ثَوى في التُرُبِ
بِأَنَّني ذو حَسَبٍ   عالٍ عَلى ذي الحَسَبِ
جَدّي الَّذي أَسمو بِهِ   كِسرى وَساسانُ أَبي
وَقَيصَرٌ خالي إِذا   عَدَدتُ يَوماً نَسَبي
وَلا حَدا قَطُّ أَبي   خَلفَ بَعيرٍ جَرِبِ
وَلا أَتى حَنظَلَةً   يَثقُبُها مِن سَغَبِ
وَلا أَتى عُرفُطَةً   يَخبِطُها بِالخَشَبِ
وَلا شَوَينا وَرَلاً   مُنَضنِضاً بِالذَنَبِ
وَلا تَقَصَّعتُ وَلا   أَكَلتُ ضَبَّ الحِزَبِ
إِنّا مُلوكٌ لَم نَزَل   في سالِفاتِ الحِقَبِ
نَحنُ جَلَبنا الخَيلَ مِن   بَلخٍ بِغَيرِ الكَذِبِ(٢٤)

وصدق أبو الفرج الأصفهاني حين وصف بشارا بأنه كثير التلون في ولائه(٢٥) ، ولم يستقر على حالة واحدة في فخره ومدحه ، وذلك لأنه كان لا يشعر بالانتماء إلى الأرض التي ربته وعلمته وأعطته لغتها التي حاربها بها .

ولم يكن أبو نواس بعيدا عن توجه بشار في خطابه المتلون ؛فقد سار على الدرب نفسها وحاكى المعاني ذاتها من تناوله العرب وتعدد ولائه . فقد مدح العرب وفخر بهم وأشاد بتاريخهم وعدد أمجادهم ، إذ فخر بيمنيته ويغضب لمواليه منهم من أحفاد قحطان وهجا عدنان وأحفاده ، وهذا الأمر يوضح لنا انه لم يرد بفخره ومدحه لليمنيين إلا النيل من العدنانيين ، وقال ابن منظور ((كان أبو نواس دعيا يخلط في دعوته)) (٢٦) ، وفي فخره اليمنيين لم يستثن من النيل من نزار ومن قريش ، وقد ذكر ابن المعتز انه ((كان شديد التعصب لقحطان على عدنان وله فيهم أشعار كثيرة ، يمدحهم ويهجو أعداءهم))(٢٧) ،وقيل إن الرشيد قد حبسه لهجائه قريشا(٢٨)،إذ يقول :

لَستُ بِدارٍ عَفَت وَغَيَّرَها   ضِربانِ مِن قَطرِها وَحاصِبِها

بَل نَحنُ أَربابُ ناعِطٍ وَلَنا   صَنعاءُ وَالمِسكُ مِن مَحارِبِها

وَكانَ مِنّا الضَحّاكُ يَعبُدُهُ ال   خائِلُ وَالوَحشُ مِن مَسارِبِها

وَنَحنُ إِذ فارِسٌ تُدافِعُ بَه   رامَ قَسَطنا عَلى مَزارِبِها

……………………   ……………………

فَافخَر بِقَحطانَ غَيرَ مُكتَإِبٍ   فَحاتِمُ الجودِ مِن مَناقِبِها

وَلا تَرى فارِساً كَفارِسِها   إِذ زالَتِ الهامُ عَن مَناكِبِها

وبعد أن يفخر باليمن ورجالاتها يتحول في خطابه نحو قريش وقبائل نزار الأخرى محاولا النيل منها :

إِنَّ قُرَيشاً إِذا هِيَ اِنتَسَبَت   كانَ لَها الشَطرُ مِن مَناسِبِها

إِن فاخَرَتنا فَلا اِفتِخارَ لَها   إِلّا التِجاراتُ مِن مَكاسِبِها

وَاِهجُ نِزاراً وَاِفرِ جِلدَتَها   وَهَتِّكِ السَترَ عَن مَثالِبِها

أَمّا تَميمٌ فَغَيرُ داحِضَةٍ   ما شَلشَلَ العَبدُ في شَوارِبِها

أَوَّلُ مَجدٍ لَها وَآخِرُهُ   إِن ذُكِرَ المَجدُ قَوسُ صاحِبِها

وَبِئسَ فَخرُ الكَريمِ مِن قَصَبِ الـ   شَوحَطِ صَفراءُ فـي مَعالِبِها
وَقَيسُ عَيلانَ لا أُريدُ لَهـا   مِنَ المَخازي سِوى مَحارِبِها
وَلَم تَعفُ كَلبَها بَنو أَسَدٍ   عَبيدَ عيرانَـةٍ وَراكِبِها
وَما لِبَكرِ بنِ وائِلٍ عِصَمٌ   إِلّا بِحَمقائِـها وَكاذِبِـها
وَتَغلِبٌ تَندُبُ الطُّلولَ وَلَم   تَثأَر قَتيـلاً عَلـى ذَنائِبِها(٢٩)

ولم يترك العرب من دون أن يلصق بهم بعض الصفات التي تحط من شأنهم –شأنه شأن صاحبه بشار– فقد وصف العرب بالوضاعة والسفاهة والتخلف مقارناً بينهم وبين الفرس ، واستعمل كلمة الملوك لدلالة المفردة على الفرس إذ عدهم أهل حضارة ، في قوله :

إِذا ما تَميمِيٌّ أَتـاكَ مُفاخِراً   فَقُل عُدِّ عَن ذا كَيفَ أَكلُكَ لِلضَبِّ
تَفاخُرُ أَبنـاءَ المُلوكِ سَفاهَةً   وَبَولُكَ يَجري فَوقَ ساقِكَ وَالكَعبِ
إِذا ابتَدَرَ الناسُ الفِعالَ فَخُذ عَصاً   وَدَعدِع بِمَعزى يا ابنَ طالِقَةِ الذَربِ
فَنَحنُ مَلَكنا الأَرضَ شَرقاً وَمَغرِباً   وَشَيخُكَ ماءٌ في التَرائِبِ وَالصُلبِ(٣٠)

ويعود ليفخر بجدوده الفرس ويفضل خصالهم ويصفهم باللطف والتحضر، وأنهم مسالمون لا يعرفون العربدة في المجالس على عكس العرب ، فهو يعيب عليهم مجالس الندماء وإنهم لا يعرفون أصول اللياقة والتحضر ولا هَمَّ لهم سوى التفاخر، إذ قال :

راحَ الشَقِيُّ عَلى الرُبوعِ يَهيمُ   وَالراحُ في راحي وَرُحتُ أَهيمُ
نادَمتُهُم أَرتاضُ فـي آدابِهِم   فَالفُرسُ عادي سُكرِهِم مَحسومُ
وَلِفارِسِ الأَحرارِ أَنفَسُ أَنفُسٍ   وَفَخارُهُم فـي عِشرَةٍ مَعدومُ
وَإِذا أُنـادِمُ عُصبَـةً عَرَبِيَّةً   بَدَرَت إِلى ذِكرِ الفَخـارِ تَميمُ
وَعَدَت إِلى قَيسٍ وَعَدَّت قَوسَها   سُبِيَت تَميمُ وَجَمعُهُم مَهزومُ
وَبَنو الأَعاجِمِ لا أُحاذِرُ مِنهُمُ   شَرّاً فَمَنطِقُ شُربِهِم مَذمومُ
لا يَبذَخونَ عَلى النَديمِ إِذا اِنتَشَوا   وَلَهُم إِذا العَرَبُ اِعتَدَت تَسليمُ

وَجَميعُهُم لِيَ حينَ أَقعُدُ بَينَهُم   بِتَذَلُّلٍ وَتَهَيُّبٍ مَوسومُ(٣١)

ولأبي نواس قصائد يدبج فيها فخره بالفرس بالنيل من العرب حينما يعقد مقارنة بين حضارتهم وحضارة العرب(٣٢) .

ويتجلى بغضه للعرب في كل ما هو مرتبط بهم سواء أكان حيوانا ، أم نباتا ، أم أرضا(٣٣)، ((فحقده على العرب باد في ألفاظه وصياغته وتسخطه ودعواته على العرب، فالعربي شقي بائس)) (٣٤) .

ويبدو تلونه واضحاً حينما يهجو القحطانية –التي سبق وان فخر بها– والعدنانية، فجمع العرب في هجائه ناهيك عما ذكرنا سابقا من تفاخره بالفرس ، فقد هجا البصرة ومن سكنها من القبائل العربية من دون النظر إلى تلك القبائل ، قال :

مُجاوِرُ قَومٍ لَيسَ بَيني وَبَينَهُم   أَواصِرُ إِلّا دَعوَةٌ وَظُنونُ
إِذا ما دَعا بِاسمي العَريفُ أَجَبتُهُ   إِلى دَعوَةٍ مِمّا عَلَيَّ تَهونُ
لَأَزدِ عُمانٍ بِالمُهَلَّبِ نَزوَةٌ   إِذا افتَخَرَ الأَقوامُ ثُمَّ تَلينُ
وَبَكرٌ تَرى أَنَّ النُبُوَّةِ أُنزِلَت   عَلى مَسمَعٍ في الرَحمِ وَهوَ جَنينُ
وَقالَت تَميمٌ لا نَرى أَنَّ واحِداً   كَأَحنَفِنا حَتّى المَماتِ يَكونُ
فَما لُمتُ قَيساً بَعدَها في قُتَيبَةٍ   وَفَخرٍ بِهِ إِنَّ الفَخارَ فُنونُ(٣٥)

وتمادى في هجائه، فلم يكتف بالعرب، بل وصل الأمر في تناوله النساء العربيات حينما اتهمن بأنهن يواصلن النبط ، ويبدو أن هذا الأمر مرده إلى ما كانت عليه أمه من سمعة سيئة جعلته يتناول النساء بهجائه ، إذ قال :

كَم رَأَينا عَرَبِيّا   تٍ يُواصِلنَ نَبيطا (٣٦)

ومن اللافت للنظر أن بعض الشعراء الموالي ممن عرف بالشعوبية وبالتعصب للعجم ارادوا أن ينالوا من العرب من دون سبب، وإنما هو حقد قد تشبع به أولئك ويرمون من ورائه الحط من العرب واستغلال كل فرصة في ذلك من دون مسوغ ، فضلا على إنهم يوجهون اللوم والتقريع لمن ينتسب إلى العرب من الموالي ، ويسخرون منهم ، محاولين صدهم عن ذلك . وهو جزء من التلون الخفي ، لأنهم لو استطاعوا الانتساب إلى العرب لفعلوا،ولكن هذه الأدران لا تقبلها الأجساد الصحيحة ، من ذلك ما قاله علي ابن الخليل يخاطب من انتسب للعرب :

يا أَيُّها الراغِبُ عَن أَصلِهِ   ما كُنتَ في مَوضِعِ تَهجينِ
مَتى تَعَرَّبتَ وَكُنتَ اِمرَأً   مِنَ المَوالي صالِحَ الدينِ
لَو كُنتَ إِذ صِرتَ إِلى دَعوَةٍ   فُزتَ مِنَ القَومِ بِتَمكينِ
لَكَفَّ مِن وَجدي وَلَكِنَّني   أَراكَ بَينَ الضَّبِّ وَالنونِ
فَلَو تَراهُ صارِفاً أَنفَهُ   مِن ريحِ خَيرِيٍّ وَنِسرينِ
لَقُلتَ جِلفٌ مِن بَني دارِمٍ   حَنَّ إِلى الشِّيحِ بِيَبرينِ
دُعموصُ رَملٍ زَلَّ عَن صَخرَةٍ   يَعافُ أَرواحَ البَساتينِ
تَنبو عَنِ الناعِمِ أَعطافُهُ   وَالخَزِّ وَالسِنجابِ وَاللّينِ(٣٧)

ومن سار على هذا المنهج من الشعراء أبو العتاهية إذ جاء في الأغاني ((كان أبو العتاهية طول حياة يزيد بن منصور(خال الخليفة المهدي) يدعي انه مولى اليمن ، وينتفي من عنزة، فلما مات يزيد رجع إلى ولائه الأول ، فحدثني الفضل بن العباس قال: قلت له: الم تكن تزعم أن ولاءك لليمن ؟ ! قال : ذلك شيء احتجنا إليه في ذلك الزمن، وما في واحد ممن انتميت إليه خير ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، وكان ادعى ولاء اللخميين))(٣٨) ، فهو لم يختلف عمن سبقه من الشعراء الموالي ممن تلون في ولائه وتقلب في آرائه نحو هذه القبيلة أو تلك ، ويصرح بأنه كان يتلون بفعل الحاجة التي كانت ديدنه في حياته وهي التكسب . ومما قاله في مدح يزيد بن منصور مشيداً بولائه لأخوال المهدي من اليمانية :

سَأَشكُرُ نِعمَةَ المَهدِيِّ حَتّى   تَدورَ عَلَيَّ دائِرَةُ الحِمامِ
لَـهُ بَيتانِ بيتٌ تُبَّعِيٌّ   وَبَيتٌ حَلَّ بِالبَلَدِ الحَرامِ(٣٩)

ثم نراه يتنكر للانتساب والتفاخر بالقبائل وهي طريقة اتخذها من قبله بشار حين عد الولاء لله سبحانه وترك التفاخر بالولاء للقبيلة . فقال :

دَعنـيَ مِنْ ذِكرِ أبٍ وَجَدٍّ   وَنَسَبٍ يُعليكَ سُورَ المَجدِ
ما الفَخرُ إلا فِي التُقَى والزُهدِ   وطَاعةٍ تُعطِي جِنانَ الخُلدِ (٤٠)

وفي نص آخر يتضح تلونه حين يهجو والبة بن الحباب ويطلب منه الرجوع عن انتسابه إلى العرب والبقاء على أصله من الموالي الذين هم في نظره أفضل وأكثر رحابه وسعة صدر ، ولعمري إنه هجاء خفي للعرب وباسلوب غير مباشر يدل على حقيقة أولئك الموالي ولاسيما الشعراء، قال :

أَوالِبُ أَنتَ في العَرَبِ   كَمِثْلِ الشَيصِ في الرُطَبِ

هَلُمَّ إِلى المَوالي الصي   دِ فـي سَعَةٍ وَفي رَحَبِ

فَأَنتَ بِنا لَعَمرُ اللَـ   ـهِ أَشبَهُ مِنكَ بِالعَرَبِ(٤١)

ومن مظاهر التلون الاجتماعي موضوع انقلاب الشاعر على ممدوحه ، وهذه الظاهرة وجدناها كثيرا عند شعراء العصر العباسي ولاسيما شعراء التكسب ممن جعل وكده وهجيراه التكسب بالشعر، والذي أصبح سُبة على الشعر العربي كما عدها بعض الباحثين(٤٢) .

والتكسب بالشعر لم يكن وليد هذا العصر ، فقد كان المديح الذي رافق الشعر العربي منذ الولادة يعبر عن توجه بعض الشعراء ممن كان ديدنه التكسب بالشعر ، وذلك لاعتزاز العربي بالصفات التي ينشدها وعدها جزءا من المثال الذي يبحث عنه، فكانت الصفات الخلقية والخُلقية هي مدار تناول الشعراء سابقا ولاحقا، ولكن ظاهرة انقلاب الشعراء على ممدوحيهم أصبحت مشاعة في هذا العصر ، ولم يكتف الشعراء بعتاب ولوم ممدوحيهم حين يتأخر العطاء أو يحرمون منه ، بل وجهوا سهام هجائهم إلى أولئك الممدوحين ، وقد أمعن بعضهم في هجاء من مدحه سابقا مما يدل على كذبه في الأولى والثانية وهذا الأمر لم يقتصر على الشعراء الموالي بل كان للشعراء العرب دور في ذلك وهذا الموضوع يعتمد على سلوك الشاعر وصدق تعامله وحقيقة خطابه . وان كان يعبر عن سلبية الشاعر ومصداقيته في القول والعمل . ومما أوردته المصادر نصيحة السيد الحميري لبشار ، حين نهاه عن المدح وعدم الكذب وذلك بإسباغ الصفات على من لا يستحق – وان كان هو لم يأخذ بهذه النصيحة – ولكنه كشف عن ديدن الشعراء وزيف طروحاتهم ، إذ قال :

أيّها المادح العبادَ لِيُعطى   إنّ للهِ ما بأيدي العبادِ

فاسألِ اللهَ ما طلبتَ إليهم   وارجُ نفعَ المُنَزِّل العَوَّادِ

لا تَقُلْ في الجوادِ ما ليس فيهِ   وتُسمّي البخيلَ باسمِ الجوادِ(٤٣)

وكشف احد الشعراء عن حقيقة بعضهم في التلون وانقلاب الحال في مدحهم وهجائهم ، فهم سرعان ما يغيرون خطابهم المدحي إلى هجاء مقذع ، قال :

وَلَقد هَزَزْتُكَ بالمَدِيـ   ـحِ فَكُنتَ ذا نَفسٍ لَكِيعَةْ

أنتَ الرقيعُ ابنُ الرَّقِيـ   ـعِ ابنُ الرقيعِ ابنُ الرّقِيعَةْ(٤٤)

ومما يروى عن بشار انه مدح المهدي فلم يعطه شيئا ((فقيل له : لم يستجد شعرك ، فقال والله لقد قلت شعرا لو قيل في الدهر لم يخش صرفه على احد ، ولكنا نكذب في القول فنكذب في الأمل))(٤٥) .

وعرف بشار بهذه الأخلاق ، إذ ساق الأصفهاني قصصا وروايات عن سيرته تبين هذا التلون والتغير في المواقف ، فكان يهدد بهجائه ممدوحيه حين يتأخر عطاؤهم ، وجاءت قصته مع عقبة بن سلم حين مدحه بأرجوزته :

((يا طَلَلَ الحَيِّ بِذاتِ الصَمَدِ))

فأمر له بخمسين الف درهم ولكن وكيله أخرها عنه فأمر بشار غلامه ان يكتب على باب عقبة :

ما زَالَ ما مَنَّيتَني مِن هَمّي الوَعدُ غَمٌّ فَاِستَرِح مِن غَمّي
إِن لَم تُرِد مَدحي فَراقِب ذَمّي(٤٦)

وخطابه واضح في الشطر الأخير ، فهو يهدد بصراحة بالهجاء بعد المدح ، وهذا لعمري ليس من الأخلاق بشيء لأنه لو كان صادقا في مدحه لما تجرأ على هذا الخطاب المتلون ولكن هذا ما عُرف عنه وما كان عليه من سلوك شائن وهناك عدة قصص تروي حقيقة تلون بشار ، فقد استمنح العباس بن محمد بن علي بن عبد الله العباس – وهو أخو المنصور– فلم يمنحه ، فقال يهجوه :

ظِلُّ اليَسارِ عَلى العَبّاسِ مَمدودُ وَقَلبُهُ أَبَداً بِالبُخلِ مَعقودُ
إِنَّ الكَريمَ لَتَخفى عَنكَ عُسرَتُهُ حَتّى تَراهُ غَنِيّاً وَهوَ مَجهودُ
وَلِلبَخيلِ عَلى أَموالِهِ عِلَلٌ زُرقُ العُيونِ عَلَيها أَوجُهٌ سودُ(٤٧)

ومن تلون خطابه مدحه روح بن حاتم المهلبي أحد القادة العرب وحاكم البصرة على عهد المنصور والمهدي(٤٨) ، فقد دبج قصيدة من ثلاثة وستين بيتا في مدحه – جاء منها :

لَقَد سادَ أَشرافَ العِراقِ اِبنُ حاتِمٍ كَما سادَ أَهلَ المَشرِقَينِ المُهَلَّبُ
لَهُ فَضَلاتٌ مِن قَبيصَةَ في النَدى وَأَكرومَةٌ مِن حاتِمٍ لا تَعَطَّبُ(٤٩)

ولكنه سرعان ما ينقلب عليه ويوجه سهام هجائه عليه، وهذا ما عُرف عن بشار ، فهو كثير التلون لا يصبر على حال ولا يركن إلى جنب فأصبح التغير في المواقف سمة من سماته فقال في روح بن حاتم:

تَوَعَّدَني أَبو خَلَفٍ وَعَن أَوتارِهِ ناما
بِسَيفٍ لِأَبي صُفرَ ةَ لا يَقطَعُ إِبهاما
كَأَنَّ الوَرسَ يَعلوهُ إِذا ما صَدرُهُ قاما(٥٠)

ونجد بشاراً قد أفاض بالتنديد بالمهجوين ((الذين مدحهم وردوه خائبا وتصرف في تصوير بخلهم)) (٥١)
.

وخطاب التلون الشعري عند بشار نجده واضح المعالم في علاقته مع يعقوب بن داود ، إذ مدحه وحاول التقرب إليه وأسبغ عليه الصفات طالبا نواله ، كقوله :

يا أَيُّهـا الـرَجُلُ الغـادي لِحاجَتِـهِ   عِندَ الخَليفَـةِ بَيـنَ المَطلِ وَالجــودِ
إِنَّ الحَوائِجَ قَـد سُدَّت مَطالِعُهـا   فَابعَث لَها جاهَ يَعقـوبَ بنِ داوودِ
يا اِبنَ الأَكارِمِ في دينٍ وَفي حَسَبٍ   أَنتَ المُجَرِّبُ لا تَفقَأ بِمَوعـودِ
قالَت فُطَيمَةُ صُم فينا فَقُلتُ لَهـا   إِن شاءَ يَعقوبُ صُمنا يا اِبنَةَ الجودِ
إِذا اِبنُ داوودَ أَعطاني مَعونَتَهُ   كانَ الفَراغُ وَلَم أَربَع عَلى عـودِ(٥٢)

ثم نراه يوجه سهام الهجاء إلى الوزير يعقوب بن داود وينعم في الحط من شأنه(٥٣) ، ولا نريد الإطالة في استقصاء تلون بشار فهو علامة بارزة في منجزه الشعري .

ونرى السيد الحميري الذي وجه نصائحه للآخرين في عدم التلون والنفاق ، لم يستطع ردع نفسه عن سلوك هذا الطريق الذي عُرِفَ به كثير من الشعراء ، وإن كان موضوع الحميري يدخل من ضمن الصراع المذهبي والسياسي إلاّ أنه يمكن أن نعده من أولئك الذين تلونوا في مدائحهم للآخرين فمدح الخليفة العباسي المهدي لما بويع لولديه موسى وهارون . فقال :

ما بالُ مَجرى دمعِكَ الساجِمِ   أَمن قذىً باتَ بها لازمِ
آليتُ لا أمدحُ ذا نائلٍ   من معشرٍ غير بني هاشمِ
أولَتهم عندي يدُ المصطفى   ذي الفضل والمنِّ أبي القاسمِ
فإنّها بيضاءُ محمودةٌ   جَزاؤها الشكرُ على العالمِ
جزاؤها حفظُ أبي جعفرٍ   خليفةِ الرحمن والقائمِ
وطاعةُ المَهديِّ ثم ابنِه   موسى على ذي الإربة الحازمِ
وللرشيد الرابعِ المُرتضى   مُفْتَرَضٌ من حقِّهِ اللازمِ(٥٤)

هنا نراه يقر بمشروعية الخلافة ويؤمن بإمامة العباسيين وإنهم أحق من مدحهم ولهم أياد بيضاء عليه إلاّ أنه سرعان ما ينقلب به الحال ويغير من موقفه ويوجه سهامه نحو المهدي الذي سبق أن مدحه . فقال :

ظنّنا أنّه المهديُّ حقّاً   ولا تقعُ الأمور كما ظننّا

ولا والله ما المهديُّ إلاّ   إمامٌ فضلُه أعلى وأسْنى(٥٥)

ومن الشعراء الذين طرقوا باب التلون في خطابهم المدحي ربيعة الرقي شأنه شأن الشعراء الآخرين ممن لم يلتزموا بمنهج واحد أو الدوام عليها وذلك حين مدح العباس بن محمد بن عبد الله العباس ، في قوله :

لَو قيلَ لِلعَبّاسِ يا اِبنَ مُحَمَّدٍ   قُل (لا) وَأَنتَ مُخَلَّدٌ ما قالَها

ما إِن أَعُدُّ مِنَ المَكارِمِ خِصلَةً   إِلّا وَجَدتُكَ عَمَّها أَو خالَها

وَإِذا المُلوكُ تَسايَروا في بَلدَةٍ   كانوا كَواكِبَها وَكُنتَ هِلالَها

إِنَّ المَكارِمَ لَم تَزَل مَعقولَةً   حَتّى حَلَلتَ بِراحَتَيكَ عِقالَها

العودُ يرطُبُ إن مَسَستَ لِحاءَهُ   والأرضُ تُعشِبُ إن وَطِئتَ رِمَالَها(٥٦)

وان كان الخطاب الذي خص به ممدوحه من المتعارف عليه في القصيدة المدحية ولم يأت بجديد ولا يرقى إلى مستوى الشعراء الكبار في قصائدهم إلاّ أنه يوضح طريقة مدحه وتكسبه وإثارة الممدوح على العطاء ولكنه سرعان ما ينقلب على هذا الخطاب ويغير من صيغته حين قل هذا العطاء أو تأخر ، قال فيه :

هَزَزتُكَ هِزَّةَ السَيفِ المُحَلّى   فَلَمّا أَن ضَرَبتُ بِكَ اِنثَنَيتُ

مَدَحتُكَ مِدحَةَ الطَرفِ المُجَلّي   لِتَجرِيَ في الكِرامِ كَما جَرَيتُ

فَهَبها مِدحَةً ذَهَبَت ضَياعاً   كَذِبتُ عَلَيكَ فيها وَاِفتَرَيتُ

فَأَنتَ المَرءُ لَيسَ لَهُ وَفاءٌ   كَأَنّي إِذ مَدَحتُكَ قَد زَنَيتُ(٥٧)

لقد كشف حقيقة أمره وبين خلقه ووسم نفسه بالكذب ولعمري هو اعتراف صريح بمنهج جل الشعراء ممن جعل وكده وهجيراه الكذب والنفاق من أجل الحصول على المغانم من دون النظر إلى حقيقة الممدوح وجوهرها وبيّن أنه يرسل مدائحه من دون أن تكون لها وجهة معروفة أي أنه لا يؤمن بما يقوله ولمن يقوله .

ومن اللافت للنظر أن مسلم بن الوليد كان من ضمن الشعراء الذين تلونوا في خطابهم المدحي ، إذ مدح يزيد بن مزيد في عدة قصائد مسبغا عليه الصفات الحميدة كلها(٥٨) ، ومنها قصيدته المشهورة التي أشاد بها بممدوحه حينما قتل الوليد بن طريف الشاري الخارجي، فقال :

لَولا يَزيدُ وَأَيّامٌ لَـهُ سَلَفَت   عاشَ الوَليدُ مَعَ الغاوينَ أَعواما

سَلَّ الخَليفَةُ سَيفاً مِن بَني مَطَرٍ   يَمضي فَيَختَرِقُ الأَجسادَ وَالهاما

كَالدَهرِ لا يَنثَني عَمَّن يَهُمُّ بِـهِ   قَد أَوسَعَ النـاسَ إِنعاماً وَإِرغاما

حَمى الخِلافَةَ وَالإِسلامَ فَامتَنَعا   كَاللَيثِ يَحمي مَعَ الأَشبالِ آجاما

أَكرِم بِهِ وَبِآباءٍ لَـهُ سَلَفوا   أَبقَوا مِنَ المَجدِ أَيّاماً وَأَيّاما

تَرى العُفاةَ عُكوفاًحَولَ حُجرَتِهِ   يَرجونَ أَروَعَ رَحبَ الباعِ بَسّاما(٥٩)

وفي نص آخر يهجوه ويحاول أن ينال منه على الرغم مما قاله فيه سابقا وإن اختلفت رواية النص فيمن قيل فيه ، ففي شرح الديوان جاء ((وقال يهجو سعيد بن سلم)) ويقال ((يزيد بن مزيد)) :

دُيونُكَ لا يُقضى الزَمانَ غَريمُها   وَبُخلُكَ بُخلُ الباهِلِيِّ سَعيدِ

سَعيدُ بنُ سَلمٍ أَلأَمُ الناسِ كُلِّهِم   وَما قَومُهُ مِن لُؤمِهِ بِبَعيدِ

يَزيدُ لَهُ فَضلٌ وَلَكِنَّ مَزيَداً   تَدارَكَ أَقصى مَجدِهِ بِيَزيدِ

خُزَيمَةُ لا بَأسٌ بِهِ غَيرَ أَنَّـهُ   لِمَطبَخِهِ قُفلٌ وَبابُ حَديدِ(٦٠)

ويبدو من النص أن هناك بعض الأسماء التي أراد أن يتناولها مسلم؛ سواء أكان جادا فيها أم أراد الهزل . ولكن النص يدل على انه أراد النيل من تلك الأسماء، سواء بقصد أم من دون قصد وفي نهاية الأمر يبدو أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من تناول الآخرين بحق أو من دون حق .

ومن الشعراء الذي لا يعدون من ضمن شعراء التلون ما قاله علي بن جبلة العكوك لأبي دلف حين هجاه ، لأنه طلب منه ذلك ، جاء في شعر علي بن جبلة ((قال أبو دلف العجلي لعلي بن جبلة ، أنت تحسن أن تمدح ولا تحسن أن تهجو ، فقال له : الهدم أيسر من البناء)) ثم قال :

أَبو دُلَفٍ كَالطَبلِ يَذهَبُ صَوتُهُ   وَباطِنُهُ خِلوٌ مِن الخَيرِ أَخرَبُ

أَبا دُلَفٍ يا أَكذَبَ الناسِ كُلِّهِم   سِوايَ فَإِنّي في مَديحِكَ أَكذَبُ(٦١)

وعلي بن جبلة معروف بانقطاعه لأبي دلف، وكثرة مدائحه فيه وما أراد بهذا النص إلا المزاح والفكاهة ولا يعد من ضمن التلون، ولكن في الظاهر يمكن أن يساق من ضمن التلون المدحي ولاسيما الشطر الثاني في البيت الثاني لأنه يقول بالكذب ، وذلك إذا جعلنا النص متجرداً من سيرة الرجل وعلاقته بالممدوح .

ولعبد الصمد بن المعذل باع في التلون المدحي؛ حينما وجه بعض المدائح لسعيد ابن سلم وقد أشاد به وجعله قبلة ضوء لكل سارٍ في الليل وكأنه موئل الباحثين عن القرى ، فقال :

ألا قل لساري الليل لا تخش ضلّة سعيد بن سلم ضوء كل بلادِ

لنا سيّد أربى على كل سيد جواد حثا في وجه كل جوادِ(٦٢)

لكنه عاد عن قوله هذا وتلون وبث خطابه الهجائي في سعيد بن سلم وجعل خطابه المدحي فيه ليس من الذي يوفي حقه وأشار بطرف خفي إلى ضياع هذا المدح فيمن ليس يعطيه حقه . فقال:

لكل أخي مدحٍ ثوابٌ يُعده وليس لمدح الباهلّي ثوابُ

مدحتُ ابنَ سَلم والمديح مهزَّة فكانَ كصَفْوانٍ عليه ترابُ(٦٣)

ويمكن أن نذهب إلى أن التغير ناتج عن فعل الزمن ، ولكن هذا لا يعفي الشاعر ، ويذكر ابن المعتز في طبقاته قصه تلون ابن ميادة إذ قال : ((وبقي ابن ميادة حتى أدرك أيام بني العباس وقد مر على جعفر بن سليمان ابن علي وهو والي البصرة فانشد:

يا جَعفَرَ الخَيراتِ يا جَعفَرُ لَيتَكَ لاتُنعى وَلا تُقبَرُ

فلما رأى جعفر ركاكة هذا الشعر وخفته، قال : يا رماح ، قال : لبيك أيها الأمير، قال : أتمدح الوليد بن يزيد الفاسق بمثل ذلك الشعر وتمدحني بمثل هذا؟ قال : أيها الأمير إن مدح الشاعر على قدر العطية)) (٦٤) .

إذن الموضوع كما هو معروف سلفا أن جلّ الخطاب المدحي يوجه من أجل العطاء وليس الإعجاب والاهتمام والاعتزاز فلذلك نجد جل الشعراء ممن يتصفون بالتلون وبخاصة من موضوع المدح والهجاء قد سار على هذا النهج . وهذا الأمر جرى مع أبي دلامة وقصته مع علي بن صالح العباسي(٦٥) ، فهو لم يخرج عن هذه الدائرة ولم يستطع التخلي عما وسم به الشعراء من حيث التغير في المواقف بسبب العطاء .

ولأبي العتاهية دور في هذا المضمار ، فهو لم يخرج عن مسار بعض الشعراء في تلونهم ونفاقهم ، وقصته مع عبد الله بن معن مشهورة في كتب الاختيارات والسير وما جرى بينهم . إذ هجا أبو العتاهية عبد الله بن معن لِما جرى بين أبي العتاهية وجاريته وضُرِبَ أبو العتاهية بسبب ذلك مما جعله يوجه سهام الهجاء نحو عبد الله بن معن(٦٦) ، ولكن سرعان ما رجع إلى مدحه وغير من موقفه على الرغم من تلك الأشعار كلها التي نالت من عبد الله بن معن(٦٧) .

ومن سار في هذا الطريق أيضا أبو يعقوب الخريمي ، فنراه يمدح أبا دلف العجلي ويسبغ عليه الصفات الجيدة إذ قال :

أَبا دُلَفٍ دَلَفَت حاجَتي إِلَيكَ وَما خِلتُها بالدلوفِ

وقال فيها :

له كَلِمٌ فيكَ مَعقولَةٌ إِزاءَ القُلوب كركب وقوف
تملك إن كُنتَ ذا إِربة مِن العالَمين لشيخ وَصيف(٦٨)

ثم نراه يغير خطابه وينقلب على قوله ويهجو أبا دلف ، فيقول:

اخلع ثيابك من أَبي دُلَفِ واهرُب من الفَجفاجة الصِلفِ
لا يُعجِبَنَّك من أَبي دلف وَجهٌ يُضيءُ كَدرّة الصَدَف
إِنّي وَجدت أَخي أَبا دلف عند الفِعال مولّدَ الشرف(٦٩)

على الرغم من شهرة أبي تمام وما عُرف عنه بأنه (مداحه نواحه) والتزامه في كثير من مدائحه بخط واحد أي أنه بقي وفياً لممدوحيه وان لم تكن مطلقة ، انحدر في بعض أشعاره إلى طائفة المتلونين في خطابهم ، وقد يكون هناك متغير فرض نفسه عليه ولاسيما في موضوع الأفشين ، وأن الموضوع يأخذ أبعاداً أخرى غير تلك التي نعدها من ضمن التلون الذي قلنا به ، ولكن نجده في بعض المواضع قد انساق إليها اختياراً لا عن ضرورة، من ذلك ما جرى مع عياش بن لهيعة الحضرمي حينما طرق بابه ومدحه في أول حياته وقال فيه:

رَأَيتُ لِعَيّاشٍ خَلائِقَ لَم تَكُن لِتَكمُلَ إِلّا في اللُبابِ المُهَذَّبِ
لَهُ كَرَمٌ لَو كانَ في الماءِ لَم يَغِض وَفي البَرقِ ما شامَ اِمرُؤٌ بَرقَ خُلَّبِ
أَخو أَزَماتٍ بَذلُهُ بَذلُ مُحسِنٍ إِلَينا وَلَكِن عُذرُهُ عُذرُ مُذنِبِ
إِذا أَمَّهُ العافونَ أَلفَوا حِياضَهُ مِلاءً وَأَلفَوا رَوضَهُ غَيرَ مُجدِبِ(٧٠)

ونقرأ له في عدة مواضع من ديوانه مدائح في عياش بن لهيعة (٧١) ، إلاّ أنه وجه إليه هجاءً لاذعا ينال منه بسبب تغير موقفه منه وانصرافه عنه . في قوله :

النارُ وَالعارُ وَالمَكروهُ وَالعَطَبُ   وَالقَتلُ وَالصَلبُ وَالمُرّانُ وَالخَشَبُ

أَحلى وَأَعذَبُ مِن سَيبٍ تَجودُ بِهِ   وَلَن تَجودَ بِهِ يا كَلبُ يا كَلِبُ

بَني لَهيعَةَ ما بالي وَبالُكُمُ   وَفي البِلادِ مَناديحٌ وَمُضطَرَبُ

لَجاجَةٌ بِيَ فيكُم لَيسَ يُشبِهُها   إِلّا لَجاجَتُكُم في أَنَّكُم عَرَبُ

عَيّاشُ مالَكَ في أُكرومَةٍ أَرَبٌ   وَلا لِأُكرومَةٍ في ساقِطٍ أَرَبُ

يا أَكثَرَ الناسِ وَعداً حَشوُهُ خُلُفٌ   وَأَكثَرَ الناسِ قَولاً كُلُّهُ كَذِبُ(٧٢)

إن خطاب المدح الموجه للافشين يدخل من ضمن المتغير السياسي الذي طرأ على الأفشين ، فهو قائد للمعتصم حارب بابك الخرمي وهو أحد أركان الدولة فكان مديحه جزءا من إرضاء السلطة ولذلك نجد قصائد المدح الموجه للمعتصم يشر بها إلى الأفشين ويشيد به(٧٣)،وهناك بعض القصائد التي خلصت بمديحها للافشين كقوله :

بَذَّ الجِلادُ فَهوَ دَفينُ   ما إِن بِهِ إِلاَّ الوُحوشَ قَطينُ

لاقاكَ بابَكُ وَهوَ يَزئِرُ فَانثَنى   وَزَئيرُهُ قَد عادَ وَهوَ أَنينُ

لاقى شَكائِمَ مِنكَ مُعتَصِمِيَّةً   أَهزَلنَ جَنبَ الكُفرِ وَهوَ سَمينُ

فَسَيَشكُرُ الإِسلامُ ما أَولَيتَهُ   وَاللَهُ عَنهُ بِالوَفاءِ ضَمينُ(٧٤)

وبما أن أبا تمام هو شاعر بلاط يعبر عن وجهة نظر السلطة ولا يستطيع الخروج عما تريده ، لذلك مدح رجالاتها على الرغم من عدم قناعته بهم حين تغير الموقف من هذه الدولة نراه يسارع إلى هجائهم وهذا ما ذكرناه آنفا ، ومن ضمن هذا الحديث ما جرى بينه وبين ابن الزيات . الذي كان وزيراً للمعتصم ، فقد تقرب إليه ومدحه وأشاد به ، بقوله :

لَهانَ عَلَينا أَن نَقولَ وَتَفعَلا   وَنَذكُرَ بَعضَ الفَضلِ عَنكَ وَتُفضِلا

أَبا جَعفَرٍ أَجرَيتَ في كُلِّ تَلعَةٍ   لَنا جَعفَراً مِن فَيضِ كَفَّيكَ سَلسَلا

فَكَم قَد أَثَرنا مِن نَوالِكَ مَعدِناً   وَكَم قَد بَنَينا في ظِلالِكَ مَعقِلا(٧٥)

ولكن ما دار بين ابن الزيات وأبي تمام من جفوة وانقلاب الحال دفع الأخير إلى أن يرد سهام الهجاء وبقوة لابن الزيات ، ويبدو أن موقف أبي تمام في هذا الموضوع سببه ابن الزيات الذي عرّض به وعاب عليه كثرة مديحه للآخرين ممن لا يستحق حين قال له :

رَأَيتُكَ سَمحَ البَيعِ وَالعِلقِ إِنَّما يُغالى بِهِ إِن ضَنَّ بِالعِلقِ بايِعُه

وَأَحرَ بِمَن هانَت بَضائِعَ مالهُ لَدى البَيعَ يَوماً أَن تَبورَ بَضائِعُه

هُوَ الماءُ إِن أَجمَمتَهُ طابَ ورده وَيُفسِدُهُ أَن تُستَباحَ شَرائِعُه

فكتب أبو تمام إليه قائلاً :

أبا جعفر، إن كنتُ أصبحْتُ شاعراً أُسامح في بَيْعِي له من أبايعُهْ
فقد كنتَ قبلي شاعراً تاجراً بهِ تسَاهلُ من عادَت عليك مَنافعُهْ
فصِرْتَ وزيراً والوزارة مَكرع يَغَصُ به بعد اللّذَاذة كَارِعُهْ
وكم من وزير قد رأينا مسلَّطاً فعادَ وقد سُدَّتْ عليه مَطَالِعُهْ(٧٦)

وهذا الصراع الذي جرى بين ابن الزيات وأبي تمام هو صراع الشعراء المتكسبين فكل واحد منهم يعيب على صاحبه موضوع المدح المجاني وغير الحقيقي والذي يراد منه التكسب .

ومن تلون أبي تمام ما قاله للمطلب الخزاعي مما يوضح حقيقة تلون الشاعر ، إذ مدحه فلم ينل عطاءه مما دفعه إلى أن يهجوه ، فقال :

أَوَّلُ عَدلٍ مِنكَ فيما أَرى أَنَّكَ لا تَقبَلُ قَولَ الكَذِبِ

مَدَحتُكُم كِذباً فَجازَيتَني بُخلاً لَقَد أَنصَفتَ يا مُطَّلِبِ(٧٧)

كشف عن حقيقة أمره ، فهو يدعي انه كاذب في مدحه ولم يتحرَ الصدق فيه ولم يؤمن بما قاله له سابقا ويذكر ذلك صراحة ، والممدوح عرف ذلك فمنعه العطاء ، وهذا دليل واضح على تلون الشاعر وهو ليس بالأمر الجديد على أبي تمام وسواه من الشعراء . و ((ويعد دعبل من أشهر شعراء الهجاء في العصر العباسي)) (٧٨) ، حتى قال عنه أبو الفرج ((هجّاء خبيث اللسان ، لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن)) (٧٩) ، وهذا النص يدل على خلق دعبل وما كان عليه من سجية فهو كثير الهجاء حتى للذين يحسنون إليه ، أي أنه ليس بصاحب مبدأ أو خلق قويم ، بل ينماز بالخبث وعدم الوفاء وهذا أحد أبواب التلون ، لأنه لا يستطيع أن يبقى على شأن واحد ، وشخصية دعبل عرفت باختلاف مواقفها فهو تارة يمدح الخلفاء وأخرى يهجوهم مما انسحب على علاقاته الأخرى

بممدوحيه . وبخاصة ما جرى مع المطلب بن عبد الله الخزاعي ، فهو تارة يمدحه ويسبغ عليه الصفات ، قائلا :

سَأَلتُ النَدى لا عَدِمتُ النَدى وَقَد كانَ مِنّا زَماناً عَزَب

فَقُلتُ لَـهُ طالَ عَهدُ اللِقا فَهَل غِبتَ بِاللَهِ أَم لَم تَغِب

فَقالَ بَلـى لَم أَزَل غائِباً وَلَكِن قَدِمتُ مَعَ المُطَّلِب(٨٠)

فالندى والجود هما قرينا الممدوح وقدومهما مقرون به وهما سيّان في الامر، فلولا الممدوح (المطلب) لم يكن هناك ندى وعطاء . ولكن لم يستطع أن يبقى على هذا المنوال ، إذ وجه هجاءه وبعدة نصوص وقصائد إلى المطلب وفي بعضها إقذاع وفحش(٨١) ، وتناوله بأوصاف قصد منها الحط من شأنه كقوله :

أَمُطَّلِبٌ دَع دَعاوى الكُماةِ فَتِلكَ نَحيزَةُ لا رُتبَه

وَما المالُ جاءَكَ مِن مَغنَمٍ وَلا مِن ذَكاءٍ وَلا كِسبَه

عَطاياكَ تَغدو عَلـى سابِحٍ وَطَوراً عَلى بَغلَةٍ نَدبَه

وَلَو يُرزَقُ الناسُ مِن حيلَةٍ لَما نِلتَ كَفّاً مِنَ التُربَه

وَلَو يَشرَبُ الماءَ أَهلُ العَفافِ لَما نِلتَ مِن مائِهِم شَربَه

وَلَو خَصَّ بِالرِزقِ نَجلُ الكِرامِ لَما نِلتَ خَيطاً وَلا هُدبَه

وَلَكِنّـهُ رِزقُ مَن رِزقُهُ يَعُمُّ بِهِ الكَلبَ وَالكَلبَه(٨٢)

إذ أنعم في سلب الصفات الجيدة منه فهو ليس بذكي ، ولا بعفيف ، ولا كريم ، وما ماله إلاّ ما هو مقسوم من الله سبحانه على العباد وليس عن ذكاء أو إتقان عمل ، وكأنه يريد أن يقول له كما قال الحطيئة للزبرقان بن بدر :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاِقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

ومن الذين انقلب عليهم أيضا ، طاهر بن الحسين ، فقد مدحه وأثنى عليه(٨٣) ، ومن ثم تناوله بالهجاء وعاب عليه فارسيته ووصفه بأقذع الأوصاف(٨٤) .

إن الخوض في أغلب المنجز الشعري للشعراء الذين كان ديدنهم التكسب قائم على التلون إذ نجده علامة بارزة فيه ولا يكاد يخلو ديوان شعر أو مجموع شعري منه ، لأنه من أهداف الشاعر ، وقد مدح بعضهم به هو

التكسب من دون النظر إلى موضوعة القيم والمبادئ أو الإيمان بما يقوله . فلذلك جاء مديحهم غير صادق كذلك هجاؤهم فالشاعر كاذبٌ في أحدهما وأنا أُرجح انه كاذبٌ في كليهما .

المبحث الثاني : التلون السياسي :

أدت السياسة دوراً مهما في العصر العباسي، ولاسيما بعد الأحداث الجسام التي مرت بها الثورة العباسية ومخاض التحول الذي نتج بعد الصراع مع بني أمية ، والشعر السياسي وأثره في الأحداث والصراعات لم يكن وليد هذه المرحلة فحسب ، بل واكب الأحداث السياسية واصبح احدى أدوات المعركة التي يستعين بها المتصارعون على السلطة وممن له باع في السياسة وكان الوسيلة الإعلامية التي يستعملها أولئك لترويج خطابهم التحريضي المعارض أو الداعي إلى السلطة ،أو كما يطلق عليه الان من المعارضة والموالاة .

ومن المسلّم به أن نشوء دول وسقوط أخرى يظهر معه بعض الداعين والموالين، الساخطين والناقمين ، كما أن هذا التحول في السلطة ينتج معه فئة من الذين يتصفون بالتلون والنفاق السياسي والباحثين عن المكاسب والمتصيدين للفرص والبحث عن الغالب ، وهو ما يسري على المتغيرات السياسية كلها للدول والأزمان . والعصر العباسي من تلك المتغيرات الكبيرة التي حدثت في التاريخ الإسلامي ، فوجدنا عدة شعراء ممن اتصف بهذه الصفات وبخاصة الشعراء من مخضرمي الدولتين ، إذ انقسم الشعراء عدة أقسام واتخذوا عدة وجهات ، فمنهم من نافق للدولة الجديدة (العباسية) وسرعان ما اسقط قناعه القديم الذي كان به يوالي بني أمية ويناصرهم ،وحاول أن يكسب ود الحكام الجدد ولكن من دون ان ينال من الحكام السابقين ، ومنهم من لبس القناع الجديد الذي يعبر عن النظرية السياسية للسلطة الجديدة ويروج لها وفي الجانب الاخر يصب جام غضبه على بني أمية ويجاهر بالكره والنيل منهم ، والقسم الآخر من بقي على الحياد ينتظر إلى ما ستؤول إليه الأمور ومعرفة اتجاه الخلافة الجديدة(٨٥) ، وقد أوضح شعراء هذه المرحلة حقيقة بعض تلك الاتجاهات ، فهذا أبو نخيلة الراجز كشف عن تلك المكنونات وعبر عن الحقيقة التي كان عليها الشعراء من تلون ونفاق حين قال للسفاح :

كنّا أناساً نرهبُ الاملاكا   إذ ركبُوا الأعناقَ والأوراكا

وكانَ ما قلتُ لمن سواكا   زوراً فقد كفّر هذا ذاكا (٨٦)

وممن برز في صورة المتلون والمنافق في موضوع السياسة أبو العطاء السندي ، إذ كال المدح لبني العباس وتزلف لهم وأعلى من شأنهم وفي الجانب الآخر تناول بني أمية وعدهم من أراذل الأشرار وجعلهم أقل درجة من بني العباس ، إذ قال :

إنّ الخيارَ منَ البريّة هاشمٌ   وبنو أُميّة ارذلُ الأشرارِ

وبنوا اميّة عودهم من خروعٍ   ولهاشمٍ في المجدِ عودُ نضارِ

أما الدعاةُ إلى الجنانِ فهاشمٌ   وبنو أميـة من دعاةِ النارِ(٨٧)

وقد كان من مداحي بني أمية وممن والاهم واحد دعاتهم والمهتمين بأمرهم وأمر قادتهم ، حتى أنه رثى احد قادتهم ممن قتل أثناء الصراع مع أبي مسلم الخراساني قائد بني العباس في خراسان وهو نصر بن سيار ، الذي حارب الثورة العباسية بداية أمرها ، فقال :

فاضتْ دموعي على نصرٍ وما ظَلَمتْ   عينٌ تفيضُ على نَصرِ بن سَيّارِ

يا نصرُ منْ لِلقاءِ الحربِ إن لَقِحتْ   يا نصرُ بعدكَ أو للضيفِ والجارِ(٨٨)

لكنه سرعان ما انقلب على بني العباس بعدما بات التلون ملازما له ، فهو تارة مع بني أمية ، ثم ينقلب عليهم وأخرى مع بني العباس ثم ينقلب عليهم ، فوجه سهام هجائه إلى الدولة الجديدة معبرا عن حقيقته ونفاقه السياسي فخاطب الدولة العباسية قائلا:

فليتَ جورَ بنـي مروانَ عادَ لنا   وَليتَ عدلَ بني العبّاسِ في النارِ(٨٩)

والواضح لنا أن بكاءه بني أمية لم يكن ناتجاً عن حبه وولائه لهم ولكن صدم بالدولة الجديدة وما كانت عليه من قسوة مع أعدائها ، فوجه هذا الخطاب نكاية بالدولة الجديدة بعد أن بطشت بخصومها من المعارضين ولاسيما العلويين منهم ، لذلك نراه يرد دعوة بني العباس التي استندوا إليها في أحقية الحكم والخلافة وهي قربهم من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، بقوله :

بني هاشمٍ عُودوا إلى نخلاتِكمْ   فَقَدْ قامَ سعرُ التمرِ صاعاً بدرهمِ

فإنْ قلتمُ رهطُ النبيِّ وقومهُ   فإنَّ النصارى رهطُ عيسى بنِ مريمِ(٩٠)

ومن الشعراء المتلونين في خطابهم السياسي ابن المولى ، الذي قال فيه أبو الفرج ((من مخضرمي الدولتين ومداحي أهلهما)) (٩١) ، وهي إشارة واضحة إلى تلون خطابه المدحي للحكام مما يعكس حال السياسة التي اتخذتها كلتا الدولتين ، إذ دأب الخلفاء في الدولتين على توظيف الشعر المدحي واستعماله للدعاية السياسية .

وابن المولى لم يقتصر في مدحه على بني أمية(٩٢) ، وبني العباس ، بل تجاوز إلى آل علي فمدحهم ، وقد وفد على الحسن بن زيد فمدحه بقصيدته التي جاء فيها :

هاجَ شوقِي تفَرُّقُ الجيرانِ   واعترَتنِي طَوارقُ الأحزانِ

ومما مدحه فيها قوله :

فضلهُ واضحٌ برهط أبي القا   سم رهط اليقين والإيمانِ

هم ذَوو النورِ والهُدى ومدى الامـ   ـرِ وأهلُ البرهانِ والعرفانِ

معدنُ الحقِّ والنبـوَّةِ والعد   لِ إذا ما تنازعَ الخصمانِ

وابن زيدٍ إذا الرجالُ تجاروا   يوم حفلٍ وغايةٍ ورهانِ

فقال له الحسن بن زيد ، يا عاض كذا من أمه ، أما إذا جئت إلى الحجاز فتقول لي هذا ، وأما إذا مضيت إلى العراق فتقول :

وإنَّ أمير المؤمنينَ ورهطهُ   لرهطُ المعالي من لؤي بن غالبِ

أولئكَ أوتادُ البلادِ ووارثو النـ   ـبيِّ بأمرِ الحقِّ غيرِ التكاذبِ

فقال له : أتنصفني يا بن الرسول أم لا ؟ فقال : نعم ، فقال : ألم أقل : وإن أمير المؤمنين ورهطه .. ألستم رهطه ؟ فقال : دع هذا ، الم تقدر أن ينفق شعرك ومدحك إلا بتهجين أهلي والطعن عليهم والإغراء بهم حيث تقول :

وما نَقَموا إلَّا المودةَ منهمْ   وإن غادروا فيهمْ جزيلَ المواهبِ

وانهم نالوا لَهُم بدمائهمْ   شفاءَ نفوسٍ منْ قتيلٍ وهاربِ(٩٣)

ومن الشعراء الموالي الذين وضح حقدهم على العرب وممن يبحث عن كل فرصة ينال منهم بالقول هو سديف بن ميمون ، وقصته مع عبد الله بن علي بن العباس حين حضر مجلسه نحو ثمانين شخصا من بني أمية ((فما راقه أن تتوحد كلمة أبناء العم، وراء التحريض والانتقام من العرب جميعا، لأن لا مصلحة له فيمن يتولى الأمر ، لأنه مولى)) (٩٤) ، فخاطب العباسيين محرضا على بني امية قائلا :

أَصبَحَ المُلكُ ثَابِتَ الآسَاسِ   بِالبَهَاليلِ مِن بَني العبَّاسِ

طَلَبُوا وِتْرَ هاشمٍ فَلَقُوهـا   بَعدَ مَيْـلٍ مِـنَ الزَّمَانِ وَبـاسِ

لا تُقِيلَنَّ عَبدَ شَمسٍ عِثَاراً   واقطعَنْ كُلَّ نَخلةٍ وغِرَاسِ(٩٥)

وقال محرضا على استئصال بني أمية ومادحا بني العباس لأنه أصبح إحدى أدوات القتل وخرج عن كونه شاعرا فقط ، إلى داعية للقتل والانتقام .

جَرِّد السيفَ وارفعِ العفوَ حتَّى   لا ترى فوق ظهرها امويّا

لا يَـغُـرَّنْكَ مَـا تَرَى مِـن رِجـالٍ   إنَّ بَـيـنَ الضُـلُـوعِ دَاءً دَوِيَّا (٩٦)

وبعد قيام ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم نجده يقف مؤيدا لهذه الثورة ضد بني العباس ومحرضا عليهم ويتوعد الخلفاء بالقتل كما عهدناه مع بني أمية ومادحاً لآل علي، فقال :

أسرفتَ في قتلِ الرعيَّةِ ظالماً   فاكفف يديكَ أضلَّها مُهديّها
فلتأتـينَّك رايــــــــةٌ حسنيّةٌ   جرّارةٌ يقتادُها حسنيُّـهــــا
حتَّى يُصبِّحَ قريـةً كوفيــــَّـةً   لمَّا تَغطرَسَ ظالماً حرميها(٩٧)

ونجد هذا المولى (سديف) يسرع بتلونه حينما فشلت الثورة ويمدح المنصور طالباً العفو منه ، فيقول:

أيُّها المنصورُ يا خيرَ العربْ   خيــــرُ مـن ينميـــهِ عبـد المطَّلبْ
أنا مـولاك وراجٍ عفــــوكـمْ   فاعفُ عنى اليوم من قبل العَطَبْ (٩٨)

ومن أولئك الشعراء الذين تلونوا في ولائهم السياسي أبو نخيلة الراجز ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك ويثني عليه بعد قتاله ليزيد بن المهلب في قوله :

مَسلمَ يـا مسلحة الحروبِ

انت المصفىّ من اذى العيوبِ

مصاصةٌ مـن كرمٍ وطيبِ

لولا ثقافُ ليـس بالتدبيبِ

تفرى به عن حجبِ القلوبِ

لامستِ الامةُ شـاءَ الذيبِ(٩٩)

ومدح هشام بن عبد الملك بأرجوزة أخرى ، فقال :

لما اتتنــي بغية كالشهدِ

والعسل الممزوج بعد الرقدِ

الى امير المؤمنين المجدي

رب معـدٍ وسوى معدِّ(١٠٠)

وذكرنا سابقا مديحه لأبي العباس السفاح(١٠١) . ولم يترك الأمر هكذا بل أصبح إحدى أدوات السياسة العباسية حين حرض على تولية المنصور لأولاده ولاية العهد ، وهي كانت غاية المنصور وامنيته لا بعاد عيسى بن موسى ، فقال :

ليس وليُّ عهدنـا بالأسعـــــــدِ   عيسَى فزَحلِفْهـا إلى مُحَمَّدِ
من عند عيسى معهداً عن مَعهدِ   حتَّى تؤدَّى من يدٍ إلى يـــدِ
فَقَد رضينـا بـالغُلامِ الامرَدِ   وقد فرغنا غير أنْ لم نشهدِ
وغير ان العقد لـم يؤكَّدِ   فلو سمعنا قولكَ أمددِ امددِ(١٠٢)

وقال ايضا :

خليفة اللهِ وأنتَ ذاكا   اسند إلى محمدٍ عصاكا
فأحفظ الناس لها ادناكا   وابنكَ ما استكفيتهُ كفاكا
وكلُّنـا منتظرٌ لذاكا   لو قلتَ هاتوا قلتُ هاكا هاكا(١٠٣)

وممن تنكر لقوله وتراجع عما سبق حينما اختلفت الأوضاع وتحولت كفة الحكم والقوة إلى بني العباس في صراعهم مع العلويين – ابن هرمة – إذ كان منقطعا إلى آل علي يمدحهم ويثني عليهم ويعلن عن فضائلهم ، ثم نراه ينقلب عليهم ، وذكر ابن المعتز قصته في ذلك بقوله : ((وكانت له مدائح في عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب وفي حسن بن زيد عليهما السلام ، وكان منقطعا إليهما ، فلما خرج محمد بن عبد الله على المنصور قعد عنه وقيل له يوما وقادتهم بالتشيع ، أنت القائل :

ومهما ألامُ على حبِّهِ   فانِّي احبُّ بني فاطمةْ
بني بنت من جاء بالمحكما   ت والدينِ والسُنَّةِ القائمة

فقال : قائلها من عض (كذا) من امه ، فقال ابنه : يا ابت الست تقولها في وقت كذا وكذا ؟ فقال : يا بني، أيها خير ، أعض (كذا) أمي أم يأخذني ابن قحطبة))(١٠٤).

وجاء في العقد الفريد نص شعري لابن هرمة يحاول ان يتبرأ من تشيعه حين وصف راية العلويين بأنها راية ابليس ويوقدها من الشرر للغاوين ، قال :

دَعَوني وَقَد شالَت لإبليسَ رايَةٌ   وَأُوقِدَ لِلغاوينَ نارُ الحَباحِبِ (١٠٥)

وله أيضا إشادة بمقدم عيسى بن موسى حين قدم للقضاء على ثورة النفس الزكية ، إذ قال :

أَتَتكَ الـرَواحِلُ وَالمُلجَمات   بعيسى بنِ موسى فَلا تَعجَلِ

وَقالَ لـيَ الناسُ إِنَّ الحَياء   أَتـاكَ مَـعَ المَلِكِ المُقبِلِ

فَدونكَها يا ابنَ ساقي الحَجيجِ   فَإِنّي بِها عَنكَ لَم أَبخَلِ

لِقَولِ الوَصـيِّ وَأَنتَ ابنُـهُ   وَصيِّ نَبـيِّ الهُدى المرسَلِ (١٠٦)

وحينما نسرد الشعراء المخضرمين الذين تلونوا بفعل تغير الحكم فإن القائمة تطول بنا ، ولكن لابد من الإشارة إلى أهم أولئك الشعراء الذين تلونوا في خطابهم السياسي بين الأموية والعباسية ، ومنهم مروان بن أبي حفصة الذي قال فيه الجاحظ ((كان من شعراء الدولتين الأموية والعباسية،وله مدائح في خلفائها وأمرائها)) (١٠٧) ، اذ مدح بني مروان بقوله :

بنو مروانَ قومٌ أعتقُوني   وكُلُّ الناسِ بعدُ لَهُم عبيدُ(١٠٨)

وقال في مدح الوليد بن يزيد :

إِنَّ بِالشامِ بِالمُوَقَّر عِزّاً   وَمُلوكاً مُبارَكينَ شُهودا

سادَةً مِن بَنـي يَزيدَ كِراماً   سَبَقوا الناسَ مَكرُماتٍ وَجودا

هانَ يا ناقَتي عَلَيَّ فَسيري   أَن تَموتي إِذا لَقيتُ الوَليدا (١٠٩)

ثم غير من خطابه المدحي للخلفاء الجدد من بني العباس ، إذ قال في مدح موسى الهادي :

إِن خُلِّدَت بَعدَ الإِمامِ مُحَمَّدٍ   نَفسي لَما فَرِحَت بِطولِ بَقائِها(١١٠)

والمتتبع لديوانه يجد عدة قصائد في مدح بني العباس(١١١) .

وهذا بشار ، الذي عرف بتلونه في كل شيء فلم يستقر على رأي أو مبدأ ، قد تلون بخطابه السياسي بين الأموية والعباسية والعلوية،فلا نكاد نعرف له رأيا سياسيا ، أموي الهوى حين مدح بني أمية ، أم عباسي الاتجاه في مدحه للعباسيين؛ ولكنه سرعان ما يغير من رأيه ويبدل موقفه بعودته إلى الأموية، أو مناصرته للثورة العلوية ويبشر بها وينتصر لقادتها ، فقد مدح سليمان بن هشام بن عبد الملك بقصيدة بلغت خمسة وستين بيتا منها :

نَأَتكَ عَلى طولِ التَجاوُرِ زَينَبُ   وَما شَعَرَت أَنَّ النَوى سَوفَ تَصقُبُ

إِلَيكَ أَبا أَيّوبَ أَسمَعتُ صاحِبي   أَغـانِيَهُ وَالناعِجـاتُ تَسَرَّبُ

إِذا خَرَجَت مِن عَينِهِ قُلتُ لَيتَني   يَجوبُ الدُجى مِنها حَرارٌ وَتَنعَبُ
شَرِبتُ بِرَنقٍ مِن مُدامٍ وَلَو دَنَت   حِياضُ سُلَيمانٍ صَفا لِيَ مَشرَبُ
إِذا قَذِيَت عَينُ الزَمانِ فَداوِها   بِقُـربِ سُلَيمـانٍ فَإِنَّكَ مُعتَبُ
عَداكَ العِدى ما سارَ تَحتَ لِوائِهِ   بَطاريقُ في الماذِيِّ كَهلٌ وَأَشيَبُ
هُوَ المَرءُ يَستَعلي قُرَيشاً بِنَفعِهِ   وَدَفعِ عَدُوٍّ فاحِشٍ حيـنَ يَكلَبُ
رَزينُ حَصاةِ العِلمِ لا يَستَخِفُّهُ   أَحاديثُ يَستَوعي عَلَيها المُعَيِّبُ
شَبيهُ أَميرِ المُؤمِنيـنَ وَسَيفُهُ   بِهِ يُتَّقى فـي النائِباتِ وَيُعصَبُ (١١٢)

وتغير الحكم بتولي بني العباس السلطة سارع بشار لمدح السفاح بقصيدة جاوزت الثمانين بيتا ، مذكرا بأحقيتهم بالخلافة ويروج لدعايتهم السياسية ويعلن خطابهم السياسي وما أشاعوه فيها على الملأ دعاية لهم وتهجم على آل مروان ، فيقول :

وَرِثتُم رَسولَ اللَـهِ بَيتَ خِلافَةٍ   وَعِزّاً عَلى رَغمِ العَدُوِّ وَسُؤدَدا
وَأَنتُم حُماةُ الدينِ لَـولا دِفاعُكُم   لَقَد قَذِيَت عَيناهُ أَو كانَ أَرمَدا
وَمَروانُ لَمّا أَن طَغـى وَأَتَتكُمُ   زَوائِرُ مِنـهُ بادِئـاتٍ وَعُوَّدا
نَصَبتُم لَهُ البيضَ اللَوامِعَ بِالرَدى   وَخَطِّيَّةً أَخمَدنَ ما كـانَ أَوقَدا
فَفَرَّقتُمُ أَشيـاعَهُ وَهَدَمتُمُ   بِمُلكِكُمُ العادِيِّ مُلكاً مُوَلَّدا
فِدىً لِبَني العَبّاسِ نَفسي وَأُسرَتي   وَما مَلَكَت نَفسي طَريفاً وَمُتلَدا (١١٣)

ولكنه سرعان ما يحول ولاءه نحو آل علي ولاسيما بعد قيام ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ضد المنصور ، محرضا ، ومعرضا ، ومتوعدا المنصور ، ويشير بالرأي الى صاحب الثورة(١١٤) – النفس الزكية – في قوله :

أَبا جعفرٍ مـا طُولُ عَيشٍ بِدائِمٍ   وَلا سالِمٌ عَمّا قَليلٍ بِسالِمِ
عَلى المَلِكِ الجَبّارِ يَقتَحِمُ الرَدى   وَيَصرَعُهُ في المَـأزِقِ المُتَلاحِمِ
كَأَنَّكَ لَم تَسمَع بِقَتلِ مُتَوَّجٍ   عَظيمٍ وَلَم تَسمَع بِفَتكِ الأَعاجِمِ

تَقَسَّمَ كِسرى رَهطُهُ بِسُيوفِهِم   وَأَمسى أَبو العَبّاسِ أَحلامَ نائِمِ

فَرُم وَزَراً يُنجيكَ يا ابنَ وَشيكَةٍ   فَلستَ بِناجٍ مِن مُضيمٍ وَضائِمِ

وحينما فشلت الثورة وقتل إبراهيم غير من الكنية وجعلها (ابا مسلم) و((جعل موضع (يا بن سلامة) ، (يابن وشيكة) وهي أم أبي مسلم)) (١١٥) . كما حذف هذا البيت :

مِنَ الفاطِمِيّينَ الدُعاةِ إِلى الهُدى   جِهاراً وَمَن يَهديكَ مَثلُ اِبنِ هاشِمِ (١١٦)

وما زال بشاراً لا يثبت طويلا على رأي واحد ، فسرعان ما يغير من خطابه بتغير المواقف السياسية وكفة الصراع ، فلم يكن متشيعا ولا من دعاتهم ،بل كان انتهازيا، ولا يحمل أي موقف مبدئي وذلك من دلالة الأبيات التي قالها في المتغير السياسي وانعدام الوفاء عنده وديدنه التكسب وليس سواه .

ولم يستكن أو يترك ذلك التلون في خطابه؛ وذلك حين وفد على المهدي مادحا علّه يفوز بالجوائز ، فمدحه وأثنى عليه ووصفه بالإمام وخليفة المسلمين وأحقيته بالخلافة ، فقال :

ميراثُ مَن بورِكَت نُبوءَتُهُ   فَالدّينُ فيهِم فَالأَمرُ ما أَمروا

آباؤُكَ الصيدُ مِن قُرَيشٍ إِذا   زَعزَعَ رَيطَ المَنِيَّةِ الذُعُرُ

مِنهُم سُقاةُ الحَجيجِ قَد عُلِموا   وَقاتِلُ المَحلِ ما لَهُ جَزَرُ

ويستطرد في تعداد مفاخر بني العباس ويصفه بإمام المسلمين :

نِعَم دُعاةُ الإِمامِ حِلمُهُمُ   راسٍ وَمَرعى جَنابِهِم خَضِرُ

يَرضَونَ بِالحَمدِ مِن صَنائِعِهِم   فينا وَبِالعَفوِ بَعدَما ظَفَروا

مِنهُم أَتانا المَهدِيُّ مُعتَصِباً   بِالتاجِ نِعمَ الدُوارُ وَالغَفَرُ

عِزّاً إِذا أَزمَعَت ذَلاذِلَها   حَربٌ وَراحَت أَمامَها شَرَرُ

مازالَ بَينَ الخَليفَتَينِ لَهُ   نَبتٌ مُنيفٌ يَحُفُّهُ الشَجَرُ

بَينَ أَبي جَعفَرٍ وَبَينَ أَبي ال   عَبّاسِ ذاكَ الشِتا وَذا المَطَرُ

إِنَّ اِبنَ عَمِّ النَبِيِّ يَهدي إِلى ال   حَقِّ وَما دونَ نَبثِهِ وَزَرُ (١١٧)

فهو أكثر من مدح المهدي وأسبغ صفات الإمامة والفعل الحسن(١١٨) ، ولكن تذبذبه بين الولاءات وتغير مواقفه من الأموية إلى العباسية ثم إلى العلوية وبعدها إلى العباسية ثم نراه يرجع إلى الأموية حينما حرض بني أمية على ارجاع الحكم من بني العباس ؛وذلك بتحريضه على المهدي ووزيره يعقوب بن داود ، قال :

بني أميّة هُبَّوا طال نومكمُ   إنَّ الخَليفَةَ يَعقوبُ بنُ داوودِ

ضاعَت خِلافَتُكُم يا قَومُ فَالتَمِسوا   خَليفَةَ اللَهِ بَينَ الزِقِّ وَالعودِ (١١٩)

وأفحش في نص آخر هجا فيه المهدي وجعله ممن لا يصلح للخلافة ويدعو الله ان يبدله بأسلوب رخيص وهو ما عُرف عنه بسوء الطبع وقلة الأخلاق(١٢٠) .

ومن الذين عرفوا بتلونهم السياسي الشاعر أبو حية النمري ، فنراه يدبج قصيدة طويلة في مدح مروان بن محمد آخر الخلفاء بني أمية ، فذكر فيها محاسنه وأسبغ عليه صفات المدح المتعارف عليها ، فقال :

أشاقَتْكَ أظعانٌ دعَتْهنَّ نِيّةٌ   يُوَطِّنُ شِعْباها الحزينَ على الهجرِ

ألا يا بنَ خيرِ الناسِ إلاّ محمدا   صَنيعاً وأولى الناسِ بالحمدِ والأجرِ

فما أدركتْنا يا بنَ مروانَ دونَكمْ   صلاةٌ لأُولى في مُناخٍ ولا فجرِ (١٢١)

وعند انقلاب الحال وتغّير المواقف واستبدلت الوجوه الحاكمة وآل الأمر إلى بني العباس ، نجده يسارع إلى مدحهم وينكل بأعدائهم من المعارضين وبخاصة من العلويين ، فهو لم يثبت على رأي في مواقفه إذ طرق الأبواب كلها من دون أن يُعرف له وجه سياسي واضح ، فقال في حضرة المنصور :

عُوجَا نُحيِّ دِيارَ الحَيِّ بالسَنَدِ   وَهلْ بِتلكَ الديارُ اليومَ مِن أحَدِ

سَللتُموهُ عَليكُم يا بَني حَسنِ   ما إن لكمْ من فلاحٍ آخر الأبدِ

قد أصبَحَتْ لبَنِي العبَّاسِ صافيةً   لِجدعِ آنافِ أهلِ البَغيِ والحَسدِ

وأَصبَحتْ كلَهاةِ الليثِ في فَمِهِ   وَمنْ يُحاوِلُ شيئاً في فَمِ الأسدِ(١٢٢)

ومن الذين خاضوا في موضوع التلون السياسي الشاعر حماد عجرد فكان من مداحي الملوك (١٢٣) ، وفي العهد العباسي نراه يحث الخطى نحو الخلفاء الجدد ليمدحهم(١٢٤) ، ثم نراه يندفع باتجاه بني أمية من دون أن يكون له وازع أو أمر يدفعه لذلك(١٢٥) . إن الحديث عن التلون السياسي يكاد يتشابه في العصور كلها ، فهو حقيقة نلمسها في تاريخنا السياسي والأدبي ، وذلك لوجود بعض المتلونين والمنافقين ممن يبحثون عن مصالحهم

من دون النظر إلى الجانب الأخلاقي ، لذلك يبحثون عن غنائم وجوائز الحكام ولا يهتمون من هو هذا الحاكم ناهيك عن النفاق وعدم الوفاء للآخرين.

المبحث الثالث :التلون الديني والمذهبي :

ظهرت الفرق الإسلامية والمذاهب بعد مقتل سيدنا عثمان ﷺ وسيدنا علي ﷺ، وبعد نشوء الدولة الأموية، واتجهت هذه الفرق اتجاهاً سياسياً معارضاً، ونشب الصراع بين تلك الأحزاب التي لبست جلباب الدين من أجل أنْ تروج لخطابها، وكان سبب ذلك هو أحقية تولي الخلافة، ((وقامت حجج هذه الأحزاب وآراؤهم على أساس ديني يدعون به جدارتهم دون غيرهم بالخلافة))(١٢٦)، ومن الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك الحقبة فاستندت في خطابها السياسي إلى الجانب الديني فرق الخوارج والشيعة والزبيريين، وهؤلاء كانوا من ضمن الفرق المعارضة، فضلاً على الأمويين الذين كانوا على سدة الحكم، والصراع يستند إلى أحقية الحكم والخلافة، فجاءت الدعوة العباسية من ضمن تلك الفرق التي اتخذت من الدين أساساً في خطابها ((فكان الدعاة يظهرون بكل جماعة الآراء التي تستهويهم، إلا أنَّ الواجهة التي بدأت تطغى على غيرها بتقادم عهد الدعوة العباسية هي الواجهة الإسلامية))(١٢٧)، وكانت بيعة المشايعين والمناصرين للدولة العباسية ودعاتها تقوم على((الرضا من آل محمد))(١٢٨)، ولذلك تداخلت الصفوف بين العباسيين والشيعة؛ لأنَّ البيعة تقوم على شعار عائم، وهو الرضا من آل محمد وهو جانب ديني.

ودب الخلاف بين العباسيين والعلويين بعد إن اعتلى السفاح المنبر وبذر بذور الخلاف، حين تنكر للآخرين أحقيتهم بالخلافة، إذ قال: ((وزعمت السبئية الضلال إنَّ غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا))(١٢٩)، ولذا نجد الخريطة السياسية التي اتخذت غطاء الدين في العصر العباسي تقسم على العباسيين ومعارضيهم من العلويين وبعض الفرق الأخرى، ومن ثم الزنادقة والتي كان لها حضور في الساحة، سواء أكان ذلك في الجانب الفقهي أم الجاني السياسي، ولاسيما المعتزلة وبعض الفرق الإسلامية الأخرى التي تشعبت عن بعض الأحزاب أو الفرق الكبيرة.

ومن دون شك أنَّ هذا المتغير السياسي والمذهبي صاحبه وواكبه المتلونون والذين عرفناهم في بعض المواضع من هذا البحث؛ لأنهم لا يتبعون مذهباً أو اتجاهاً سياسياً وحتى ممدوحاً واحداً، وإنما تحكمهم المصالح الذاتية والبحث عن المغانم، والتخلي عن مبادئهم وارتداء أقنعة جديدة وبث خطاب النفاق لمن له الغلبة أو المال.

والتلون السياسي له علاقة بهذا الجانب، ولكن هناك بعض الخصوصية التي وجدناها في شعر بعضهم تعبر عن هذا التوجه(١٣٠)، فقد تنوع الشعراء في تلونهم الديني والمذهبي؛ فمنهم من دافع وتمسك بمذهبه أو بفرقة من الفرق ثم ما لبث أنْ انقلب وغير من وجهته وولائه نحو الفرقة أو المذهب الآخر، وإن كان بالضد منه كما حدث مع السيد الحميري ومنصور النمري ، ومنهم من كان يؤمن ببعض الأفكار الإلحادية واتهم بالزندقة وعَبَّرَ

بسلوكه وشعره عن ذلك، ثم تحول إلى الطريق القويم واتبع السنة المحمدية مثل بشار وأبي نواس، ومنهم من نافق مثل دعبل وغيره من الشعراء.

فقد نزع بعض الشعراء قناع المحبة والولاء والإيمان عن هذا المذهب أو الدين ولبس قناعاً آخر على وفق المتغير في المصالح كما ذكرنا آنفاً. وعَبَّر أستاذنا الدكتور محسن غياض (رحمه الله) عن ذلك عندما تحدث عن بعض الشعراء إذ قال: ((وليس من شك في أنَّ شعراء الشيعة لم يكونوا مخلصين في مدحهم للعباسيين أبداً، وإنما كانوا يتابعون أئمتهم في الأخذ بمبدأ التقية... وكانوا يمدحون العباسيين طمعاً في أموالهم وجوائزهم))(١٣١).

ويبدو أن هذا النص قد تناول فئة من الشعراء ممن عرف حبهم لآل البيت، وأول من يلقانا في هذا العصر من الشعراء الذين عرفوا بحبهم وولائهم لآل البيت ﷺ هو السيد الحميري الذي كان كيسانياً ويتبع لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن الإمام علي ؓ، والذي أوصى بالإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله العباس(١٣٢)، فعقيدة الرجل تحتم عليه أن يقر بإمامة بني العباس ويناصرهم ويثني عليهم ويمدحهم وينال جوائزهم. ومما قاله في إمامة ابن الحنفية:

إمامُ الهُدى قلّ لي متى أنتَ آيبٌ　　فمُنَّ علينا يا إمامُ بِرَجْعةِ
مَلَلنا وطالَ الانتظار فَجُدْ لنا　　بحقِّكِ يا قطبَ الوجودِ بِزَوْرةِ
فأنت لهذا الأمرِ قِدما مُعيَّنٌ　　كذلك قال اللهُ أنتَ خَليفتي (١٣٣)

فهو يؤمن بالرجعة ويزعم بأنَّ ابن الحنفية الذي دخل في شعب رضوى سيعود كما يقول أصحاب مذهب الكيسانية(١٣٤).

حتى قال عنه أبو الفرج: " انه كان يقول بالرجعة(١٣٥)"، وقد أكثر من التصريح بكيسانينته في خطابه الشعري وإيمانه بإمامة ابن الحنفية(١٣٦). – كما ذكرنا آنفاً – أنَّ عقيدة الرجل تبيح له مدح بني العباس والاعتراف بإمامتهم، فقد خاطب السفاح مادحاً له ومقراً بخلافته، إذ قال:

دُونكموها يا بَني هاشمٍ　　فجدِّدُوا من آيِها الطامِسا
خلافةَ اللهِ وسلطانـه　　وعنصرٌ كانَ لكمْ دارسا(١٣٧)

ووجه خطابه إلى المنصور أيضاً مادحاً له وقاراً بإمامته، واصفاً إياه بالمنجّي لمن تبعه يوم القيامة، بقوله:

قُل للإمامِ الذي يُنجِي بطاعَتِهِ　　يومَ القيامَةِ مِن بَحبُوحةِ النَّارِ(١٣٨)

ولكن هذا الأمر لم يطل ويبقى الرجل على مذهبه، حينما وجه سهام الهجاء لهؤلاء الأئمة – كما قال هو – ومدح الخلفاء وحتى ولاة العهد منهم قاراً بولايتهم على المسلمين، خاطب المهدي مادحاً وولاة عهده من أبنائه، إذ قال:

جزاؤها حفظُ أبي جعفرٍ   خليفةَ الرحمن والقائمِ

وطاعةُ المَهديِّ ثم ابنِه   موسى على ذي الإربةِ الحازمِ

وللرشيدِ الرابعِ المُرتضى   مُفْتَرَضٌ من حقِّهِ اللازمِ

مُلكهمُ خمسونَ معدودةُ   برغمِ أنف الحاسدِ الراغمِ

ليسَ علينا ما بَقوا غيرَهم   في هذه الأُمَةِ من حاكمِ

حتى يردّوها إلى هابطٍ   عليهِ عيسى منهمُ ناجمِ (١٣٩)

فهذا إقرار بحاكميتهم وخلافتهم ووجوب طاعتهم، وعدم الرضا بقول أعدائهم، سرعان ما تنكر لعقيدته الكيسانية، والتي تجيز لبني العباس خلافتهم على وفق ما تعارف عليه المؤرخون، فسلب ذلك الحق منهم وازدرى بالخليفة المهدي ولاسيما في موضوع (اسمه) وأرجع الإمامة إلى آل علي، إذ قال في ذلك:

ظنّنا أنّه المهديُّ حقّاً   ولا تقعُ الأمور كما ظننّا

ولا واللهِ ما المهديُّ إلاّ   إمامٌ فضلُه أعلى وأسْنى (١٤٠)

ويبدو أن هذا التغير في موقفه ناتج عن تغيير مذهبه، كما قال ابن المعتز: " ما زال السيد يقول بذلك حتى لقي الصادق عليه السلام أيام الحج، فناظره وألزمه الحجة فرجع عن ذلك، فذلك قوله في تركه تلك المقالة ورجوعه عما كان عليه ويذكر الصادق عليه السلام:

تجعفرتُ باسم الله واللهُ أكبرُ   وأيقنتُ أنّ الله يقضي ويقدرُ(١٤١)

ويورد محقق الديوان رواية عن تبديل مذهبه من الكيسانية وانتقاله إلى الإمامية ويؤكد ذلك في متن الديوان(١٤٢).

ومن نصوصه الشعرية التي عبرت عن تلونه المذهبي وعدوله عما كان يؤمن به ويعتقد، قوله:

أيا راكباً نحو المدينةِ جَسْرَةً   عُذافِرَةً يَطوي بها كلَّ سبسب

إذا ما هداكَ الله عايَنت جَعفراً   فقل لوليِّ اللهِ وابن المهذبِ

ألا يا أمينَ اللهِ وابنَ أمينِه   أتوبُ إلى الرحمن ثُمّ تأوُّبي (١٤٣)

وصرح بعدوله عن إمامة محمد بن الحنفية وإيمانه بها وإتباعه إمامة جعفر الصادق عليه السلام، بقوله:

تركتُ ابنَ خولةَ لا عن قِلىً   وإنّي لَكالكَلفِ الوامِقِ

وإنّي له حافظٌ في المَغيبِ   أدين بما دانَ في الصَادقِ (١٤٤)

ولكن أبا الفرج ينكر رجوعه عن مذهب الكيسانية، وقال: " يضعف الشعر الذي ينسب له في تغيير مذهبه "(١٤٥).

وإنْ صَحَّ كلام ابن المعتز أو لم يصح، وإنْ أخذنا بقول الأصفهاني فإنه تلون في مذهبه، فإذا كان كيسانياً حتى مماته فما الذي دفعه لهجاء بني العباس ، وإذا كان إمامياً فإنَّ عقيدته تمنعه أنْ توالي غير الأئمة من أبناء علي عليه السلام، وأن يبتعد عن مدح وإقرار إمامة غيرهم كما فعل مع بني العباس. وإذا كان كيسانياً فإنَّ شعراءهم لا يسبون الصحابة ولاسيما الخلفاء الراشدين ﵃، وهذا ما ذهب إليه الدكتور محسن غياض(١٤٦).

لكن السيد الحميري تعرض لهم بالسوء وهذا ما دفع د. طه حسين و **(شارل بلا)** باتهامه بضعف العقل وسخف الرأي في المذهب والإلحاد والخروج عن الدين(١٤٧).

ومن الشعراء الذين عرفوا بتلونهم منصور النمري، حتى قيل فيه أنه كان (ينافق الرشيد ويذكر هارون فيشعره ويريه أنه من وجوه شيعته وباطنه ومراده بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)(١٤٨)، وأكد الحصري القيرواني أنه (كان يضمر غير ما يظهر، ويعتقد الرفض)(١٤٩) وهذه أدلة على تلونه سبقنا إليها بعض النقاد والكتاب ويذكر أبو الفرج رواية عن تلون الرجل إذ قال: (وأنشد منصور النمري قصيدة مدحه بها (أي: لهارون الرشيد)، وهجا آل علي وثلبهم، فضجر هارون وقال له: " يا ابن اللخناء، أتظن أنك تتقرب إليَّ بهجاء قوم أبوهم أبي، ونسبهم نسبي، وأصلهم وفروعهم أصلي وفرعي "(١٥٠)، ويذكر انه قال في اليوم التالي قصيدته التي جاء فيها:

بَني حَسَنٍ وَرَهطَ بَني حُسَينٍ   عَلَيكُم بِالسَدادِ مِنَ الأُمورِ
أَميطوا عَنكُمُ كَذِبَ الأَماني   وَأَحلاماً يَعِدنَ عِداتِ زورِ
فَقَد ذُقتُم قِراعَ بَني أَبيكُم   غَداةَ الرَوعِ بالبيضِ الذُكورِ
أَحينَ شَفوكُمُ مِن كُلِّ وِترٍ   وَضَموكُم إِلى كَنَفٍ وَثيرِ
فَما كانَ العُقوقُ لَهُم جَزاءً   بِفِعلِهِمُ وآدى للثُؤورِ
وَإِنَّكَ حينَ تَبلُغُهُم أَذاةٌ   وَإِن ظَلَموا لَمَحزونُ الضَميرِ (١٥١)

فهنا حاول أن يخفف من خطابه الذي وجهه ولامه عليه هارون الرشيد حين اعترض عليه في هجائه لآل علي وبات ناصحاً ويدعو آل علي إلى التمسك بالطريق القويم وإتباع بني العباس؛ لأنهم استردوا الحقوق وحافظوا على الخلافة وهم أولى بالإتباع والطاعة، ولكنه سرعان ما كشف عن حقيقته في نص شعري آخر، ويغير من خطابه ويدعي تشيعه وحبه لآل علي، في قوله:

شاءٌ من الناسِ راتعٌ هامِلْ   يُعَلِّلُون النفوسِ بالبَاطِلْ
تُقتلُ ذرِّيَّةُ النّبيِّ ويــــــــر   جونَ جنانَ الخلودِ للقاتلْ
وَيلَكَ يا قاتِلَ الحُسَينِ لَقَد   بُؤتَ بِحِملٍ يَنوءُ بالحامِل
دينكم جفوة النّبىّ وما الـجا   في لآل النّبيِّ كالواصلْ
إلا مَساعِيرُ يَغْضَبُون لَهَا   بِسَلَّةِ الْبِيضِ والقَنَا الذَّابِلْ (١٥٢)

وهنا تبين تلون الرجل في خطابه ووضح نفاقه المذهبي ،كما قيل: (غلبت أطماع الرجل على عقيدته، وهكذا اندفع يترسم خطى مروان بن أبي حفصة في مهاجمة العلويين والطعن عليهم لينال رضا الرشيد ....، وهكذا كانت أموال الرشيد وصلاته أقوى من عقيدة شاعرنا وأكثر تأثيراً في نفسه، لو كانت تلك العقيدة قوية في نفسه لصمد للفتنة ولعاد أدراجه)(١٥٣).

ومن الذين تخبطوا في معتقداتهم ولم يأخذ اتجاهاً واضحاً الشاعر المتلون بشار بن برد، فهو تارة مع المتكلمين وأخرى مع الزنادقة وثالثة من المتشيعين، حتى قال عنه أبو الفرج في روايته عن الجاحظ: " كان بشار يدين بالرجعة، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وذكر ذلك في شعره فقال:

الأرض مظْلمةٌ والنارُ مُشرِقةٌ   والنار معبودةٌ مذْ كانت النارُ (١٥٤)

ولا يجد من حرج في تفضيل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين، وفي تفضيله هذا يرجع إلى مجوسيته التي تؤله النار وتجعل لها أماكن للعبادة وهي من ضمن عقائد الفرس المتعارف عليها(١٥٥)، قال في ذلك:

إِبليسُ خَيرٌ مِن أَبيكُم آدَمٍ   فَتَنَبَّهوا يا مَعشَرَ الفُجّارِ
إِبليسُ مِن نارٍ وَآدَمُ طينَةٌ   وَالأَرضُ لا تَسمو سُمُوَّ النارِ (١٥٦)

وذهب بعضهم إلى أنه كان من ضمن الفرقة الكاملية التي تعد من فرق الشيعة ولكنهم خلعوا الإمام علي عليه السلام؛ لأنه قبل بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ(١٥٧).

ويروي صاحب الأغاني عدة روايات تدل على فسقه وعدم اعتداده وقيامه بالفروض الإسلامية(١٥٨)، ولكننا نجده في بعض أشعاره يؤمن باليوم الآخر وهذا ما دفع محقق الديوان الطاهر بن عاشور أنْ يدفع عنه تهمة الزندقة(١٥٩)، من مثل قوله:

كَيفَ يَبكي لِمحبَسٍ في طُلولِ مَن سَيَقضي لِحَبسِ يَومٍ طَويلِ
إِنَّ في الحَشرِ وَالحِسابِ لَشُغلاً عَن وُقوفٍ بِكُلِّ رَسمٍ مُحيلِ (١٦٠)

ومن الشعراء المخضرمين الذين تلونوا في معتقداتهم الدينية والمذهبية ، العبلي، وابن هرمة ، وابن المولى ، (وهم جميعا كانوا يطوفون بزعماء الزيدية)(١٦١)، ولكنهم سرعان ما انقلبوا على الزيدية، واتبعوا بني العباس وسايروهم في عقيدتهم من خلال الإقرار بإمامتهم(١٦٢).

ويُعد أبو دلامة من الشعراء الذين عرفوا بتلونهم وعدم بقائهم على معتقد واحد حتى عده أحد الباحثين من ضمن الشعراء الزنادقة(١٦٣) وقصته مع أبي العباس السفاح حين أجبره على الحضور إلى المسجد وإقامة الصلوات، وبان عن حقيقة أمره، وعَبَّرَ بشكوى عن ذلك مما يشي بطبع الرجل الذي إنماز بضعف الإيمان والتحلل من الفروض، في قوله:

أَلَمْ تَعلَمِي أنَّ الخَليفَــةَ لَزَّنِي بِمَسجِدِهِ والقَصرِ ما لي وللقَصرِ
أُصلِّي بهِ الأولى مَع العصرِ دائباً فويلي من الأولى وويلي من العصرِ
وما ضَرَّه واللهُ يصلحُ أَمرَهُ لَو أنَّ ذُنوبَ العَالمينَ علَى ظَهرِي(١٦٤)

وقد اختلف النقاد في عقيدة أبي نواس، وذلك يعود إلى نوعية الخطاب الشعري الذي بثه، فقد كان متماجناً ومتهتكاً ومرتكباً للمحارم، ويبوح بفعل المنكرات من دون وازع ديني أو أخلاقي، إذ قال:

يا أَحمَدَ المُرتَجى في كُلِّ نائِبَةٍ قُم سَيِّدي نَعصِ جَبّارَ السَمَواتِ (١٦٥)

وذهب بعضهم إلى أنه كان يتبع فرقة المرجئة وذلك في قوله:

لا تَحظُرِ العَفوَ إِن كُنتَ اِمرَأً حَرِجاً فَإِنَّ حَظــرَكَـهُ في الدينِ إِزراءُ (١٦٦)

ولا نريد أنْ نطيل في ذكر الأشعار التي باح بها بكفره وإنكاره للبعث والنشور وإقراره بترك شعائر الإسلام؛ لأنَّ أحدهم قد جمعها من ضمن شعر الزنادقة(١٦٧).

ونتعالى عن ذكر تلك الأشعار لما بها من كفر صريح.

ولكن نجده في أخريات عمره قد زهد وطلب العفو منه سبحانه ﷻ، وهذا هو التلون بعينه؛ لأنَّه عندما قصر جسمه عن فعل المنكرات نراه يرجع إلى الله طالباً العفو والمغفرة من مثل قوله:

يا رَبِّ إن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ

إن كانَ لا يَرجوكَ إلّا مُحسِنٌ فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ

أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ

ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إلّا الرَجا وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ (١٦٨)

وقد أقر بذنبه وبما فعله من معاص تحتم عليه الرجوع والإنابة إلى الله ﷻ، إذ قال:

أَلَم تَرَني أَبَحتُ اللَهوَ نَفسي وَديني وَاِعتَكَفتُ عَلى المَعاصي

كَأَنّي لا أَعودُ إِلى مَعادٍ وَلا أَخشى هُنالِكَ مِن قِصاصِ (١٦٩)

ويُعد دعبل من ضمن الشعراء المتلونين حتى قال عنه أبو العلاء المعري: ((ما يلحقني الشك في أنَّ دعبل بن علي لم يكن له دين وكان يتظاهر بالتشيع، وإنما غرضه التكسب ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأي الحكمي وطبقته والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشبة))(١٧٠)، وقد عرف عنه تشيعه وحبه لآل البيت حتى قيل عنه: (أكبر شاعر شيعي ظهر بعد السيد الحميري)(١٧١)، ودبج كثير من القصائد التي تعبر عن ولائه لآل البيت ولا حاجة لنا بذكرها؛ لأن ديوانه المطبوع قد حوى جُل قصائده تلك، ولكن نراه يمدح بني العباس الذين اختلف معهم إتباع المذهب العلوي، ولم يقروا بولايتهم، فقد قال في المعتصم وكناه بأمين الله :

قُل لِلأَمينِ أَمينِ آلِ مُحَمَّدٍ قَولَ اِمرِئٍ شَفِقٍ عَلَيهِ مُحامِ (١٧٢)

وقال مخاطباً المأمون:

قالَت وَقَد ذَكَّرتُها عَهدَ الصِبا بِاليَأسِ تُقطَعُ عادَةُ المُعتادِ

إِلّا الإِمامَ فَإِنَّ عادَةَ جودِهِ مَوصولَةٌ بِزِيادَةِ المُزدادِ (١٧٣)

لكن ما عرف عن دعبل من عدم الولاء جعله يرجع إلى ديدنه في هجاء الآخرين ولاسيما الخلفاء من بني العباس، فقد أقذع في هجائهم وتناولهم بما لا يليق(١٧٤).

ونجد فسقه وخروجه عن جادة الدين وصراخه بالكفر مما يدل على أن الرجل لم يكن صاحب مبدأ في خطابه الشعري وإنما يتلون في كل حادثة تلائم نفسه، وتواكب حياته فهو يصرح بالرذيلة ويدعو لها من دون وازع ديني أو أخلاقي – إذ قال:

إنَّما العَيشُ في مُنادَمَةِ الإخ وانِ لا في الجُلوسِ عِندَ الكَعابِ

وَبِصَرفٍ كَأَنَّها أَلسُنُ البَر قِ إِذا اِستَعرَضَت رَقيقَ السَحابِ

إِن تَكونوا تَرَكتُمُ لَذَّةَ العَي شِ حِذارَ العِقابِ يَومَ العِقابِ

فَدَعوني وَما أَلَذُّ وَأَهوى وَاِدفَعوا بي في نَحرِ يَومِ الحِسابِ (١٧٥)

وعَدَّ بعض المؤرخين أبا تمام من ضمن شعراء التشيع(١٧٦)، على الرغم مما عرف عنه موالاته لبني العباس وانقطاعه لهم ومُرَوج لخطابهم السياسي، دبج قصيدة في رثاء آل البيت وعَدَّد فيها مناقبهم، وأشار إلى بعض الروايات التاريخية التي تبين أحقية الإمام علي بالخلافة وأظهر الأسى والحزن على مصابهم(١٧٧) ، وإن سلمنا بذلك فهذا يمكن أن نعده من ضمن محاولات تقربه من الخليفة المأمون الذي عُرف بحبه لآل البيت .

ولا نُريد الإطالة في عرض جميع الشعراء الذين عرفوا بتلونهم وسلكوا درب الزندقة والمجون بعد أن كانوا مسلمين؛ لأنَّ هذا العصر قد حوى كثيرا منهم ولا نجد أحداً تناول العصر بالدراسة إلا وذكرهم.

وقد شارف البحث على الانتهاء بعد أن استعرضنا صور تلون الشعراء في خطابهم واختلاف تلك المواقف على وفق المتغير السياسي والاجتماعي والثقافي .

الهوامش

---

(١) الأغاني : ١٣٩/٣ .

(٢) تناول كثير من الباحثين المواقف التي تنم عن اتجاه سياسي أو ثقافي أو ديني في كتب تنوعت وتعددت اتجاهاتها ، مثل شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري – اتجاهات الشعر في القرن الثاني للهجرة – تاريخ الأدب العربي – شوقي ضيف – فروخ – الزيات – الأدب والسياسة – عبد الكريم توفيق – الشعوبية والأدب – خليل جفال – الشعر والشعراء – الشكعة .

(٣) معجم مقاييس اللغة : ٢٢٣/٥ .

(٤) لسان العرب : ٩٧٥/٧ .

(٥) ينظر : لسان العرب : ٨٥٥/١ .

(٦) ينظر : العين ٢٢٢/٤ ؛ وتهذيب اللغة : ٤٧/٧ ؛ والصحاح : ١٢١/١ .

(٧) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٠/٣ ؛ ونظم الدرر : ٣٨٥/١٦ ؛ والتحرير والتنوير : ٢٣٥/٢٣ .

(٨) دليل الناقد الأدبي : ٨٩ .

(٩) اتجاهات الشعر في القرن الثاني للهجرة : ٥٨–٥٩ .

(١٠) تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي : ٥٣ .

(١١) ينظر : البيان والتبيين : ٣٦٦/٢ ؛ مروج الذهب : ٢٩٢/٨ .

(١٢) العصر العباسي الأول – الدوري : ٤٢ .

(١٣) ينظر : الأغاني : ١٢٠/٤ .

(١٤) ينظر على سبيل المثال : حديث الأربعاء – طه حسين ؛ في الشعوبية – إسماعيل العوفي ؛ الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي – زاهية قدورة ؛ الشعوبية والأدب – خليل جفال .

(١٥) ديوانه : ١٢٥/٤ ؛ ينظر : الأغاني : ١٣٦/٤ حول موضوع انتساب بشار إلى بني عقيل وولائه لهم .

(١٦) ينظر : طبقات الشعراء – ابن المعتز : ٢٩ .

(١٧) ديوانه : ٢٤٧/٣–٢٥٧ .

(١٨) ديوانه : ٣٠٦/١–٣٢٣ ؛ ينظر : الأغاني : ٣٣٦/٣ ؛ طبقات الشعراء : ٢٧–٢٨ .

(١٩) ينظر : الشعوبية والأدب : ١٨–٢١ .

(٢٠) ديوانه : ٨٣/٤ .

(٢١) م . ن : ٣٧٧/١ .

(٢٢) م.ن : ٢٢٩/٣–٢٣٢ .

(٢٣) ينظر : الشعر والشعراء – الشكعة : ١٢٦ ، إذ حاول أن يلتمس العذر لبشار على هذا القول.

(٢٤) ديوانه : ٣٧٧/١ وما بعدها . الورل : دويبة من فصيلة الضب .

(٢٥) ينظر : الأغاني : ١٣٩/٣ .

(٢٦) أخبار أبي نواس : ١٦ .

(٢٧) طبقات الشعراء : ١٩٥ .

(٢٨) ينظر : الطبري :

(٢٩) ديوانه : ٥٠٦–٥٠٩ .

(٣٠) م.ن : ٥١٠-٥١١ .

(٣١) م.ن : ١٩٣-١٩٤ .

(٣٢) تنظر : القصيدة في ديوانه : ١٧٢ .

(٣٣) ينظر : ديوانه : ٥٢ .

(٣٤) الشعوبية والأدب : ٣١٠ .

(٣٥) ديوانه : ٥٤٦ .

(٣٦) م.ن : ٢٢٧ .

(٣٧) الأغاني : ١٨٤/١٤ ؛ وينظر : ١٨٣/١٤ .

(٣٨) م.ن : ٣٢/٤ .

(٣٩) م.ن : ٣٢/٤ .

(٤٠) م.ن : ٥/٤ .

(٤١) م.ن : ١٤٩/١٦ .

(٤٢) ينظر : التكسب بالأدب – الخياط :

(٤٣) ديوانه : ١٨٠ .

(٤٤) البيان والتبيين : ٣٥٥/٢ .

(٤٥) الأغاني : ٢١٦/٣ .

(٤٦) م.ن : ١٨٢/٣ .

(٤٧) م.ن : ١٩٥/٣ ، وينظر كذلك : ٢١٣/٣ في مدح وهجاء يزيد بن مزيد .

(٤٨) ينظر : سير أعلام النبلاء : ٤٤١/٧ .

(٤٩) ديوانه : ١٣٣/١-١٤٢ .

(٥٠) ديوانه : ١٦٤/٤ ؛ الأغاني : ٢١٦/٣ .

(٥١) الشعراء من مخضرمي الدولتين : ٣٢٥ .

(٥٢) ديوانه : ٥٩/٣ .

(٥٣) ينظر : ديوانه : ٥١/٤ .

(٥٤) ديوانه : ٣٩٠-٣٩١ .

(٥٥) م.ن : ٤٢٢ .

(٥٦) شعر ربيعة الرقي : ١١٣-١١٤ ؛ وينظر : طبقات الشعراء : ١٥٨ .

(٥٧) شعر ربيعة الرقي : ٨٤-٨٥ .

(٥٨) ينظر : شرح ديوان صريع الغواني : ١ ، ٦١ ، ٩٧ ، ٢٦٨ .

(٥٩) م.ن : ٦٢-٦٤ .

(٦٠) م.ن : ٢٧١ .

(٦١) شعر علي بن جبلة : ٤٦ .

(٦٢) شعر عبد الصمد بن المعدل : ٨٦ .

(٦٣) م.ن : ٧١ .

(٦٤) طبقات الشعراء : ١٠٨ .

(٦٥) م.ن : ٦١ .

(٦٦) ينظر : الأغاني : ٤/٢١ – ٢٣ .

(٦٧) م.ن : ٤/٢٣ .

(٦٨) ديوان الخريمي : ٤٧ .

(٦٩) م.ن : ٤٦-٤٧ .

(٧٠) ديوانه : ١/١٥٢ .

(٧١) ينظر : م.ن : ٢/٢٧٤ ، ٢٨٧ .

(٧٢) ديوانه : ٤/٣١٣-٣١٤ .

(٧٣) ينظر : ديوان أبي تمام : ٣/٧٩ ، ١٣٢ .

(٧٤) ديوانه : ٣/٣١٦-٣٢٢ .

(٧٥) ديوانه : ٣/٩٨ ؛ وينظر : ٣/٣١ .

(٧٦) ديوانه : ٣/١٣٠ .

(٧٧) م.ن : ٤/٣٢٤ .

(٧٨) دراسات في الأدب : ٥٠ .

(٧٩) الأغاني : ٢٠/١٣١ .

(٨٠) شعر دعبل : ٦٦ .

(٨١) ينظر : م.ن : ٦٧ .

(٨٢) م.ن : ٦٦-٦٧ .

(٨٣) م.ن : ١٦٦ .

(٨٤) م.ن : ١٧٩-١٨٠ .

(٨٥) ينظر : مواكبة الشعر العباسي للأحداث : ٢١ وما بعدها .

(٨٦) تنظر القصة في : الأغاني : ٢/٣٩٩ ؛ وزهر الأدب : ٢/٩٩٦ ؛ وشذرات الذهب : ١٢/١٩٥-١٩٦ مع بعض الأختلاف .

(٨٧) الأغاني : ١٧/٣٣٢-٣٣٣ .

(٨٨) ينظر : الشعر والشعراء : ٢/٧٧٠ .

(٨٩) م.ن : ٢/٧٧٠ .

(٩٠) م.ن

(٩١) الأغاني : ٣/٢٨٦ .

(٩٢) ينظر : م.ن : ٣/٣٠١ .

(٩٣) الأغاني : ٣/٢٩٤-٢٩٥ .

(٩٤) دراسات في الأدب العربي : ٢٠ .

(٩٥) شعر سديف : ٢٢ .

(٩٦) م.ن : ٣٠ ؛ وينظر : طبقات الشعراء : ٤١ .

(٩٧) م.ن : ٤٢ .

(٩٨) م.ن : ٢١ ؛ والشعر والشعراء : ٢/٧٦٢ .

(٩٩) الأغاني : ١٨/١٤٠ .

(١٠٠) م.ن : ١٨/١٤١ .

(١٠١) ينظر : م.ن : ١٨/١٤٣ .

(١٠٢) م.ن : ١٨/١٥٠ .

(١٠٣) م.ن : ١٨/١٤٣ .

(١٠٤) طبقات الشعراء : ٢٠-٢١ .

(١٠٥) العقد الفريد : ٥/٣٤٦ .

(١٠٦) كتاب الأوراق : ٣١٢ .

(١٠٧) البيان والتبيين : ٣/٢٨٩ .

(١٠٨) شعر مروان بن أبي حفصة : ٣٥ .

(١٠٩) م.ن : ٣٣ .

(١١٠) م.ن : ١٥ .

(١١١) ينظر : م.ن : ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٩٤ .

(١١٢) ديوانه : ١/١١٩-١٣٠ ؛ وينظر : امالي المرتضى : ١/٥١٠ .

(١١٣) م.ن : ٣/٢٩-٣١ .

(١١٤) ينظر : الأغاني : ٣/١٥٦ .

(١١٥) م.ن : ٣/١٥٦ .

(١١٦) م.ن : ٣/١٥٦ .

(١١٧) ديوانه : ٣/٢٧٢-٢٧٤ .

(١١٨) ينظر : م.ن : ٣/٢٨٠ ، ٣/١٠٣ .

(١١٩) ديوانه : ٤/٥١ ؛ وطبقات الشعراء : ٢٥ .

(١٢٠) ينظر : ديوانه : ٤/١٨١ ؛ والأغاني : ٣/٢٤٣ .

(١٢١) شعر أبي حية النمري : ٥١-٥٦ .

(١٢٢) م.ن : ١٤١ .

(١٢٣) ينظر : طبقات الشعراء : ٦٩ .

(١٢٤) م.ن : ٧٠ .

(١٢٥) م.ن : ٧١ .

(١٢٦) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: ٣٣، وينظر: مواكبة الشعر العباسي للأحداث: ٥٣ – ٦٦ – ٦٧.

(١٢٧) طبيعة الدعوة العباسية: ٦٨.

(١٢٨) تاريخ الطبري: ٧/ ٣٧٩، الأخبار الطوال: ٣٣٥.

(١٢٩) م . ن: ٧/٤٢٥.

(١٣٠) ينظر: اتجاهات الشعر: ٣٤٥.

(١٣١) التشيع وأثره: ١١٤.

(١٣٢) ينظر: أخبار الدولة العباسية: ٧٣ – ١٨٥.

(١٣٣) ديوانه: ١٤٤.

(١٣٤) ينظر: الأغاني: ٧/٢٣٢ – ٢٣٣.

(١٣٥) م . ن: ٧/٢٤٢.

(١٣٦) ينظر: ديوانه: ٤٩ – ٥٠ – ٥٢ – ٦٦ – ٦٨ – ١٤٠ – الخ .

(١٣٧) ديوانه: ٢٥٨ – ٢٥٩.

(١٣٨) م . ن : ٢٣٢.

(١٣٩) م . ن : ٣٩٠ – ٣٩١.

(١٤٠) م . ن : ٤٢٢.

(١٤١) طبقات الشعراء: ٣٣.

(١٤٢) ينظر: الديوان: ٢٠١ – ٢٠٢.

(١٤٣) الديوان: ١١٤ – ١١٥.

(١٤٤) م.ن: ٢٩٥.

(١٤٥) ينظر: الاغاني: ٧/ ٢٣٥ – ٢٣٦.

(١٤٦) ينظر: التشيع واثره: ١٠٥، ومواكبة الشعر العباسي للاحداث: ٥٣، اذ اعترضنا على ذلك القول واثبتنا ان الكيسانية متمثلة بالسيد الحميري قد تناولت الصحابة الكرام، اذا قلنا بكيسانيته .

(١٤٧) ينظر: حديث الاربعاء: ٢/٢٢٦، الجاحظ ، شار بلا: ٢٨٦.

(١٤٨) أمالي المرتضى: ٤/ ١٨٦.

(١٤٩) زهر الاداب: ٣/٧٠٥.

(١٥٠) الاغاني: ١٣/١٤٤.

(١٥١) م.ن.

(١٥٢) الشعر والشعراء: ٢/٨٦٠، طبقات الشعراء: ٢٤٣.

(١٥٣) التشيع واثره: ص/١٩٢.

(١٥٤) الاغاني: ٣/١٤٥، وينظر: البيان والتبين: ١/١٦.

(١٥٥) ينظر: رحلة الشعر: ٥١٣.

(١٥٦) ديوانه : ٤/٨٤ .

(١٥٧) ينظر: الفرق بين الفرق: ٣٥، والبيان والتبين: ١/١٧، ونكت الهميان: ١٢٧.

(١٥٨) ينظر: الاغاني: ٣/١٤٦ – ١٤٧.

(١٥٩) مقدمة ديوان بشار بن برد: ١/٢٦.

(١٦٠) ديوانه : ٤/١٥٣ .

(١٦١) الشعراء من مخضرمي الدولتين: ١٨٤.

(١٦٢) ينظر: م.ن: ١٨٤ – ١٨٥.

(١٦٣) ينظر: ديوان الزنادقة: ١٦٧ – ١٧١.

(١٦٤) طبقات الشعراء: ٦٠ – ٦١.

(١٦٥) ديوانه: ١٧٢.

(١٦٦) م . ن: ٧، وينظر: ضحى الاسلام.

(١٦٧) ينظر: ديوان الزنادقة: ٢٣٤ – ٢٣٧.

(١٦٨) ديوانه: ٦١٨.

(١٦٩) م . ن: ٦٢٢.

(١٧٠) رسالة الغفران: ٢١٨/٣.

(١٧١) التشيع وأثره: ٢٠١.

(١٧٢) شعر دعبل: ١٨٦.

(١٧٣) م . ن: ١٠٤.

(١٧٤) ينظر: م . ن: ٦٣ – ٦٨ – ١٩٢ – ١٩٩.

(١٧٥) شعر دعبل: ٥٩ – ٦٠.

(١٧٦) ينظر: أعيان الشيعة: ج/١٩، من كتاب التشيع: ١٥٤

(١٧٧) ينظر: ديوانه: ١٦٤ – ١٦٥ .

المصادر والمراجع

١. اتجاهات الشعر في القرن الثاني للهجرة ، د. محمد مصطفى هدارة، دار العلوم العربية ، بيروت ، ١٩٨٨م.

٢. أخبار أبي نواس، أبو هفان ، عبد الله بن أحمد، (ت ٢٥٧هـ)، تحقيق: محمد مرسي الخولي، مطابع الأهرام التجارية ، د.ت.

٣. أخبار الدولة العباسية ، مؤلف مجهول ، تحقيق: د. عبد العزيز الدوري، د. عبد الحبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ١٩٧١م.

٤. الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) تحقيق: عبد المنعم عامر، طبعة الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٥. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، (ت ٣٥٦هـ)، م ، دار الكتب المصرية ج/١ ، ١٦ ، ب ، طبعة الهيئة المصرية للنشر والتوزيع، ج/١٧ ، ٢٤.

٦. أمالي المرتضى ، غرر الفرائد ودرر القلاد ، أبو القاسم علي بن الحسين (ت٤٣٦هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

٧. الأوراق، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، قسم أخبار الشعراء، مطبعة الصاوي ، ١٩٣٩م ، مصر.

٨. البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢ ، ١٩٦٠م.

٩. تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، شوقي ضيف ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

١٠. تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠م.

١١. التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، د.ت .

١٢. التشيع وأثره في شعر العصر العباسي الأول ، د. محسن غياض ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٧٣م.

١٣. تفسير القرآن العظيم ،

١٤. التكسب بالشعر ، د. جلال الخياط ، دار الآدب ، بيروت، ١٩٧٠م.

١٥. تهذيب اللغة، أبو منصور بن أحمد الأزهري، (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق:قيق: عبد السلام محمد هارون، راجعه: محمد علي النجار ، دار الصادق للطباعة والنشر ، ٢٠٠٤م.

١٦. التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، د. مجاهد مصطفى بهجت ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٩٨٢م.

١٧. الجاحظ، الدكتور (شار بلا) ، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، مطبعة اليقظة ، دمشق ، ١٩٦١م.

١٨. حديث الأربعاء، د. طه حسين، دار المعارف ، مصر .

١٩. دراسات في الأدب العربي ، الدكتور كمال عبد الفتاح السامرائي ، دار الفارابي للمعارف، سوريا ، دمشق ، ٢٠٠٩م.

٢٠. دليل النقد الأدبي ،

٢١. ديوان أبي تمام ، طبعة محمد علي صبيح، مصر ، ١٣٦١هـ.

٢٢. ديوان أبي تمام، (ت ٢٣١هـ) بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، مطابع دار المعارف بمصر ، م/١ ، ط٣ ، د.ت ، م/٢، ط٢ ، ١٩٦٩م ، م/٣ ، ط٢، ١٩٧٠ ، م/٤ ، ١٩٦٥م.

٢٣. ديوان أبي دلامة الأسدي، (ت ١٦١هـ)، تحقيق: د. رشدي علي حسن، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، دار عمان ، الأردن ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م.

٢٤. ديوان أبي نواس، حققه وضبطه وشرحه: أحمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر ، شركة مساهمة مصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

٢٥. ديوان الخريمي، أبي يعقوب إسحاق، (ت ٢١٤هـ) ، جمعه وحققه: علي جواد الطاهر ، محمد جبار المعيبد، دار الكتاب الجديد بيروت ، مطابع الأمان ، ١٩٧١م.

٢٦. ديوان الزنادقة، جمع وتحقيق: جمال جمعة، منشورات الجمل ، ألمانيا، ط١.

٢٧. ديوان السيد الحميري، (ت ١٧٣هـ)، جمعه وحققه وشرحه وعلق عليه وعمل فهارسه: شاكر هادي شكر ، قدم له محمد تقي الحكيم، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، مطبعة سميا ، د.ت.

٢٨. ديوان بشار بن برد، (ت ١٦٧هـ)، جمعه وشرحه وعلق عليه: محمد الطاهر ابن عاشور ، نشر الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦م ، وطبعة دار ومكتبة الهلال ، ط١ ، ١٩٩٨م، قدم له وشرحه: الدكتور صلاح الدين الهواري.

٢٩. رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١م.

٣٠. رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، (ت ٤٤٩هـ) تحقيق: الدكتورة بنت الشاطئ ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٠م.

٣١. زهر الآداب وثمر الألباب ، أبو إسحاق إبراهيم القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، تحقيق: د. زكي مبارك، ط٤ ، دار الجيل للنشر والتوزيع بيروت ، مكتبة المحتسب ، عمان ١٩٧٢.

٣٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

٣٣. شرح ديوان صريع الغواني، مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) عني بتصحيحه والتعليق عليه: د. سامي الدهان، دار المعارف ، مصر، ط١ ، ١٩٥٨م، ط٢، ١٩٧٠م.

٣٤. شعر أبي حية النمري (ت سنة مائة وبضع وثمانين)، جمعه وحققه: د.يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والارشاد، مطبعة وزارة الثقافة، ١٩٧٥م.

٣٥. شعر دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦هـ) صنعة: د. عبد الكريم الاشتر ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٦م ، تاريخ المقدمة.

٣٦. شعر ربيعة الرقي، (ت ١٩٨هـ أو ٢٠١هـ)، جمعه وحققه وقدم له: د. يوسف حسين بكار، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م.

٣٧. شعر سديف بن ميمون (ت ١٤٧هـ) جمع وتحقيق: رضوان مهدي العبود ، نشر جمعية مدارس النجف الثقافية الأهلية ، العراق ، د.ت.

٣٨. شعر عبد الصمد بن المعذل، (ت ٢٤٠هـ) جمع وتحقيق ودراسة: د. زهير غازي زاهد، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٠م.

٣٩. شعر علي بن جبلة العكوك، (ت، ٢٢٤هـ) تحقيق ودراسة: أحمد نصيف الجنابي ، مطبعة الآداب النجف ، ١٩٧١م.

٤٠. شعر مروان بن أبي حفصة (ت ١٨٢هـ) جمعه وحققه: د. حسين عطوان ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٣هـ.

٤١. الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٥م.

٤٢. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف ، مصر ، د.ت.

٤٣. الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، د. حسين عطوان، ط١ ، مكتبة المحتسب، عمان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤م.

٤٤. الشعوبية والأدب ، ابعاد ومضامين، د. خليل جفال، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م.

٤٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تح : أحمد عبدالغفور عطا ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٥٦م .

٤٦. ضحى الإسلام، أحمد أمين، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٥م.

٤٧. طبقات الشعراء المحدثين، ابن المعتز أبو العباس عبد الله (ت ٢٩٦هـ) تحقيق: عبد الستار راضي فراج ، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م.

٤٨. طبيعة الدعوة العباسية، د. فاروق عمر فوزي، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع ، بغداد ، د.ت.

٤٩. العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري، ط١، التفيض الاهلية ، بغداد ، ١٩٤٥م.

٥٠. العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، أعادت طبعه بالأوفيست ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٧م، شرحه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط٢ ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢هـ.

٥١.العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ، تح : د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٢م .

٥٢.الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد بدر، مطبعة المعارف، مصر ، ١٩١٠م.

٥٣.لسان العرب، لابن منظور، دار الحديث مصر ، ٢٠٠٣م.

٥٤.مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، (ت ٣٤٦هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

٥٥.معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارس ، تح: عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٩م .

٥٦.مواكبة الشعر العباسي للأحداث الداخلية، أطروحة دكتوراه ، كمال عبد الفتاح حسن، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١م.

٥٧.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٥٨.نكت الهميان في نكت العميان، صلاح الدين بن أيبك الصفدي(ت: ٧٦٤هـ)، وقف على طبعة: أحمد زكي باشا، مطبعة الجمالية، مصر ١٩١١م.